A B B A S A R N A O U T

NOVEL

عباس أرناؤوط

الحلاج

وارتعش القلبُ عشقاً..

الطبعة الرابعة

رواية

الحلاج.. وارتعش القلب عشقا / رواية
عباس أرناؤوط / مؤلّف من الأردنّ
الطبعة الرابعة، 2020

حقوق الطبع محفوظة ©

المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي:
المصيطبة – شارع ميشال أبي شهلا – متفرع من جسر سليم سلام
مفرق الجامعة اللبنانية الدولية LIU – بناية النجوم – مقابل أبراج بيروت
ص.ب.: 11/5460 الرمز البريدي 1107-2190
تلفاكس: 707892 1 00961 – 707891 1 00961
بيـروت – لبـنـان
E-mail: mkpublishing@terra.net.lb
موقع الدار الألكترونيّ: www.airpbooks.com

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب.9157، عمّان، 11191 الأردنّ،
هاتف: 5605432 6 00962، هاتفاكس: 4631229 6 00962
E-mail : info@airpbooks.com

تصميم الغلاف: صهيب عباس أرناؤوط / الأردنّ
الصفّ الضوئيّ: المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر/ بيروت، لبنان
التنفيذ الطباعيّ : ديمو برس / بيروت، لبنان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن مسبق من الناشر.

الترقيم الدولي: ISBN: 978-614-486-124-0

رواية
NOVEL

عباس أرناؤوط

الحلاج

وارتعش القلب عشقاً..

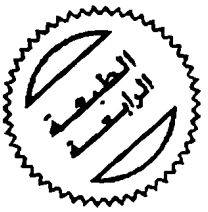

وارتعش القلب عشقاً..
الحلاج..

إلى من لا ينام شبعاناً وجاره جائع..

اللحظة..

إلى مجلس الشرطة في الجانب الغربي من
بغداد..
مع نجوم الليل بعد العِشاء الآخرة..
وصل الركب..
ليلة الاثنين.. الثالث والعشرين من ذي القعدة
عام ثلاثمائة للهجرة وازدادوا تِسعا..

السجن..
غرفةٌ ضيّقة..
جدران صمّاء.. نافذة..
دخل خطوة..
خطوتين..
الباب يُغلق..
لصوت الصرير صدى..
وحيداً.. تركوه..
كما ظنوا..
وما كان وحيداً..

قال المُعلّم..
يا ولدي.. عنقود عنب..
كُلهُ في مكان لا يراك فيه أحد..
مضى الطفل..
يوم..
يومان..
عاد..
العنب بين يديه.. حائراً..
سألهُ المعلم..
لِم لمْ تأكله..
أجاب..
لم أجد مكاناً لا يراني فيه أحد..

الله يراني..

الله يراني..
تمتم في نفسه وردّدّ.. الله يراني..
النافذة في الجدار الأصمّ..

السماء والليل والنجوم..

النجوم..
صرخة أمل في سكون اليأس..
تتلألأ بالبُشرى..
ونِعمَ ما تبشّرُ به..
الجَلْد والصَلْب ولقاء الحبيب..

السماء.. تلبس السواد المهيب..
الأبدية.. بلا نهاية..
ونحن.. نولد ونموت..
نرتحل من دار إلى دار..

ارتعش قلبُه شوقاً..

أغَداً أخلع ثوباً طالما أثقل روحي..
وأطير بين قناديل العرش..

مع طيور خُضر أغدو وأروح..
أضع رأسي على صدر الحبيب.. بعد فراق طال..
بيننا يا حبيبي ليلةٌ بحرها بلا شواطئ..
الشوق فيها مركبي..
ذِكرك شراعي وتسبيحي وتضرعي..
حتى الصباح..

على الأرض فَرَدَ رِداءه وجلس..

يا جليس من ذكرك..
متى نسيتك حتى أذكرك..
متى بَعُدتَ حتى أطلبك..
وأي الأرض تخلو منك..
يا من لم يوحدك حق التوحيد غيرك..
والله..
كل حُبٍ غير حُبِّكَ في قلبي حرام..

بدايات..

أول الذكريات أجملُها..

الحسين بن منصور.. في سنوات عمره الأولى..
يعيش في الطور من قضاء البيضاء في فارس..
حيث وُلد..

أبي..
كان نحيفاً بديعاً.. منحنياً قليلاً..
يحمل بيده قوساً.. أطول من قامته.. من خشب
متين.. وله وتر..
يجلس أمام كومة من القطن الأبيض كالثلج..
يضرب وتر القوس..
يتطاير الثلج في السماء.. أبيض..
يحمل الأحلام..

أُحسُّ البرد..
ألتصقُ بأبي أتكوّر..
أتأمل الوتر..
الإيقاع يتوالد..
أرفع رأسي..
القطن نجوم ترصّع السماء.. تتناثر..
تسقط بياضاً يكسو الأرض بالصفاء..

والدي يحدثني وهو يعمل..

أتعرف ما هو الحلاّج..
يجيب على سؤاله وهو يضرب الوتر..
الحلاج.. ليس الذي يندف القطن وحسب..
هو من ينزع الشوائب عن خيوط الزهرة البيضاء..
يميز الخبيث من الطيّب..

يُروى عن إبراهيم بن سمعان أنه قال..
رأيت الحلاج في جامع المنصور.. وكان في تكّتي
ديناران شددتهما لغير طاعة الله..
سألني سائل فقير.. فلم أعطِه..
فقال الحسين.. يا إبراهيم تصدق عليه بما شددت في
تكّتك..
فتحيّرت..
قال.. لا تتحيّر.. التصدق بهما خيرٌ مما نويت..
قلت.. يا شيخ هذا من أين..
قال.. كل قلب تخلّى عن غير الله يرى في الغيب
مكنونه وفي السر مضمونه..
سمّي الحسين بن منصور بالحلاج.. حلاج
الأسرار..
يميّز الخبيث من الطيب..

بين مراكز النسيج في الأهواز..
مضى الأب وأهله وطفله في حل وترحال..
يحمل الأب قوسه إلى كل مدينة يدخلها
يلتف حوله الناس.. يدعونه للعمل..
يجلس..
أجلس قُربه..
أَسمعُ اللحنَ.. أتأملُ القطن يتطاير نجوماً
ويسقط ثلجاً..
مع أبي أسافر ولا أغترب..
هو دفئي ووطني..

ألف.. لام.. ميم..
ما هو بسحر ولا شعر..
كأنه تمائم تتنزّلُ من السماء..
كاف.. ها.. يا..
يرتعش قلبي..
عين.. صاد..
في البدء كان الكلمة..
ولكن.. قبل الكلمة كان الحرف..
سر الكون والمعرفة..

في النهار نقرأ ونتعلّم..
وفي الليل..
يُشعل لنا المعلم ناراً..
نتدفّأ بنارها.. ونرتّل على نورها..

حفظت الكتاب..
من الفاتحة حتى سورة الناس..
تكلّمت.. كتبت.. بلسانٍ عربيٍ فصيح..

لقد آتاك الله القرآن يا ولدي.. فرتّله ترتيلا..
يمسح على رأسي ونتابع الرحيل..

دخلنا مدينة تستُر..
مدينة تنسج أياديها المباركة كسوة الكعبة كل عام..
وأنا يومها ابن ست عشرة سنة..

تُسْتر..

أول الشتاء في تُسْتر..
الأرض عروس تعطّرت..
تنتظر السماء..
يبلّلها المطر..
يفوح عطرها.. يوقظ الأرواح شوقاً..
حتى الصباح..

ليل تُسْتر سكونٌ وصوت مطر..
والفتى الحلاج لا ينام..

قرأ.. تعلّم.. أضناه السهر..
لكن في العقل حيرة.. ما تزال..
وألف سؤال..
بلا جواب..

يرفُّ قلبُه..
يهيم..
طائراً عن عُشّه طار.. تاه..
لا يغني..
ينادي حبيباً لا يراه..

عالمُ تستر وسيّدها..
أبو محمد.. سهل بن عبد الله..
عاش في تستر وإليها ينتسبُ..
تكلّم في الإخلاص وعِلم القلوب..
سمع عنه الحلاج فذهب إليه..
لعل في بحره ماء غير مالح ولا أجاج يشرب منه فيرتوي..

التستري جالس..
يُبحر في أرض غير الأرض..
كوّة في الجدار.. وراءه..
النور..
هالة من ضياء تخفي ملامح وجهه فلا تبين..

من فارق الحبيب يذكر أيام الوصال..
قال وصمت..
طال الصمتُ..
أردت أن أقول..
الشوق يضنيني..
أسكتتني هيبةُ السكون..
قال..
الشوق..
الشوق إلى غائب وهو حاضر..

أسى القلب يا ولدي.. لوعة المُحبّين..

ما هذا الكلام..
قطرات ماء نقيةً من عالم الغيب..
عمرها لحظةٌ.. أو.. بعض لحظة..

قال..
من اهتدى بقلبه وصل..
أهمس..
أين..
أجاب..
فأينما تولّوا فثم وجه الله..
من رأى غير الحبيب ما رأى الحبيب..

أخذتني الحيرة..
كيف أطلبه..
ردّد..
إذا أحب عبداً جذب قلبه إليه..
نهديه الذنوب ويهدينا المغفرة..
صمت..
ظلّ صامتاً حتى تكلم الصمت..
ارتعشت أوصالي..
بحرٌ يغرف من بحر ويسقي بمقدار المباح..

سأصحبه ما شاء الله لي أن أصحبه..

مشيت إلى الباب..
خرجت وأنا أعرف أن إليه الرجوع..

بدأ يحضر دروس معلمه يجلس في حلقاته..
لمح التستري قلب الفتى.. يسع الدنيا..
روحه تلامس أطراف الغيب..
أحبّه وقرّبه..
أحياناً.. كان.. يُجالسُه على انفراد..
يقول..
في العِلم مكنون لا يُرمى على الطُرقات..

سمع الطالب معلمه يروي يوماً.. في المسجد..

جاءت المؤلفة قلوبهم..
دخلوا المسجد..
نظروا إلى فقراء المسلمين وقالوا..
يا رسول الله.. لو أنك جلست في صدر المسجد
وأبعدت عنا هؤلاء لجلسنا إليك وأخذنا عنك..
وكان الفقراء يلبسون جباب الصوف لا يملكون
غيرها.. تفوح منها رائحة الضأن من شدة
الحر..
فنزل القرآن..
«وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ
وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ
زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ
ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا.»

فقام نبي الله عمّن اتبع هواه من الأعيان إلى الفقراء يلتمسهم في طرف المسجد.. يجلسون .. يذكرون الله.. جلس معهم وقال..
الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع قوم من أمتي.. معكم المحيا ومعكم الممات..

كان مما علّمني.. رحمه الله..
أنه ما من قلب ولا نفس إلاّ والله مطّلعٌ عليها
ساعات الليل والنهار..

قال لي..
العلم والعمل نعمتان..
شكر العلم يكون بالعمل وجزاء العمل زيادة العلم..

إن الأعمال بالتوفيق.. والتوفيق من الله..
ومفتاح الأعمال الدعاء والتضرّع..

كان يقول..
أصول علمنا سبعة أشياء..
التمسك بكتاب الله تعالى..
الاقتداء بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم..
أكل الحلال..
كف الأذى..
اجتناب الآثام..
التوبة الدائمة..
أداء الحقوق..

يا بني..
اعرفها عِلماً وأحفظها عملاً.

لازمت الشيخ سنتين..
كان فيها المربّي والمعلم..
يوماً زرته..
يجلس هادئاً..
صوته يأتي من مكان بعيد..
يقول..
ليست هناك معصية أعظم من الجهل..
يا بني..
اجتهد في الزهد..
أول الزهد وأعلاه.. ترك الحرام..
أعمال البر يعملها البَرُّ والفاجر.. ولا يجتنب
المعاصي إلاّ صدّيق..
الزهد كرامة المؤمن.. وهجر دار البوار إلى دار
القرار..

يا بني..
التوبة حال الراحلين.. ومركبهم..
الاستغفار زادهم..
لا يدخل الوادي المقدس إلا من خلع نعليه.. حَوله وحيلته..

يا بني..
الإثم ما حاك في صدرك..
«وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فإن الجنة هي المأوى..»
الهوى همس النفس وشهوتها.. فاحذرهُ..

صمت الشيخ طويلاً..
يتلو في سِرّه أوراداً وتسبيحاً..
أردت أن أتركه لما هو فيه..
قال..
يا بني.. اعلم أن هذا زمان لا ينال أحد فيه النجاة إلاّ بذبح نفسه بالجوع والصبر والجهد..
لفساد مَا عليه أهل الزمان..

صمت..
حلّق بعيداً..
احترت فيما أقول..

فتحت الباب..
ليلة باردة..
القمر يسكن بيت المُحاق..
خرجت راجعاً.. أتلمس طريقي..

في اليوم التالي..
عرفت أن الشيخ قُبض عليه..
وأنه نفي إلى البصرة.. وبها مات غريباً..
وأن ذَبح النفس بالجوع والصبر والجهد كانت وصيته لي..
وأن أهل الزمان قد فسدوا..

يولج الليل في النهار..
يولج النهار في الليل..
تشرق الشمس وتغرب..
اليوم.. يصبح أمساً..
أمسٌ.. لا يعود..
تمضي الساعات في السماء غيوماً.. سفر بلا رجوع..
هكذا غاب التستري..
سفر بلا رجوع..
وأسأل..
لماذا يؤذى رجل يقول ربي الله..
عابداً بين العلماء..
عالماً بين العابدين..
يمشي على الأرض ويعيش في السماء..

فَقْد الحبيب بلا وداع.. جرحٌ.. لا يشفى..
يذكر معلّمه..
يمر بالمسجد..
ببيته..

الأطلال حزنٌ على من رحل..

يذكر معلمه..
يعلّمني من الحديث..
.. وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أُحبّه..
فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره
الذي يبصر به..
النوافل مطيّةُ المؤمن..
يسجد ويقترب..

يذكر معلمه..
.. الصوم خير النوافل..
سرٌّ بين العبد وربه.. يُجزي به كيف يشاء.. كرماً
وعطاءً..
الصوم عبادةٌ دائمة..
يروّض أشواقه بالصوم..

يذكر معلمه..
يا بني..
حبيبنا قال ألا أدلّك على كنزٍ من كنوز الجنة..
لا حول ولا قوة إلا بالله..
يردّد..
لا حول ولا قوة إلا بالله..
قدّر الله وما شاء الله فعل..
قلبه يشعُّ شوقاً إلى البصرةِ وساكنيها..

البصرة.. تشعُّ علماً ومعرفة..
إليها..
شدّ الرحال.. ورحل..

السنين..

نتوقف قليلاً..
نسمع ما يقال ونرى ما يحدث..
نقرأ السنين..
نربط الآتي بما قد حدث..
نحن الآن في منتصف القرن الثالث للهجرة..
نعود قليلاً إلى الوراء..
إلى سنة سبع وأربعين ومائتين..
وفيها..
خطب الخليفة المتوكل بالناس.. يوم عيد الفطر..
ثم خرج إلى خيام له يتنزه أيام العيد.. وكان بعض الأمراء الترك قد تآمروا والمنتصر بن المتوكل على خلع أبيه..
فذهبوا إليه في خيامه..
دخلوا عليه.. ابتدروه بالسيوف وقتلوه..
في صباح اليوم التالي.. الرابع من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين..
أخذت البيعة للمنتصر.. فبعث إلى أخيه المعتز..
ولي العهد بعد أبيه.. أخافه وهدده وأكرهه على بيعته واستقوى عليه بالترك فسلّم المعتز وبايعه واعترف بخلافته..

ثم دخلت سنة ثمان وأربعين ومائتين..
وفيها..

مرض المنتصر وضعُف..
دخلت عليه أُمه وسألته..
كيف حالك..
قال..
ذهبت مني الدنيا والآخرة..
خان وغدر وتآمر وقتل ولم يحكم سوى أشهر ستة ومات.. مسموماً..

بويع المستعين بالخلافة..
بايعه الناس وخرجت عليه شرذمة من التُرك..
فاقتتل الطرفان قتالاً شديداً..
انتُهكت بغداد..
انتشَر الموت والخوف والفتن.. حتى استقر الأمر للمُستعين..
ولكن..
الحال لا يستقر طويلاً..

دخلت سنة تسع وأربعين ومائتين..
فيها..
اندلع الغضب..
فقد غلب التُرك على أمر الخلافة.. قتلوا المتوكل واستضعفوا المنتصر وبعده المُستعين..
ظلموا وأفسدوا..

ثارت فتنة عظيمة في بغداد..
اقتحمت العامة السجن وأخرجوا من كان فيه..
أحرقوا الجسور ونهبوا ودمّروا..

في سامراء..
حدثت فتنة مثلُها وما سكنت إلا بعد أن قتل التُرك
من العامة خلَقاً كثيراً..
والخلفاء لاهون..
شراب وقيان وجوارٍ حسان..

ثم دخلت سنة واحد وخمسين ومائتين.. وفيها..
خرج المُستعين من سامراء إلى بغداد فوقعت فتنة
بسبب خروجه وانقسم الناس..
دعا أهل سامراء إلى بيعة المعتز.. وبقي أهل
بغداد على بيعتهم للمستعين..
فأرسل المعتز آخاه.. أبا أحمد.. على رأس خمسة
آلاف من التُرك إلى بغداد..
حاصروا المدينة وقتلوا خلقاً كثيراً في أيام
نحسات..
ولَما اشتد الحال وضاقت الدنيا بما رحبت..
اجتمع رجال المستعين وطلبوا منه خلع نفسه من
الخلافة وأن يكون له من مال الخَراج كل عام ما
يحتاج ويطلب..

سنة اثنين وخمسين ومائتين..
استقرت الخلافة للمعتز بعد أن خلع المستعين نفسه..
بدأ عهده بأن خلع أخاه أبا أحمد الذي قاد جيوشه في بغداد ورسّخ له الحُكم..
ثم خلع أخاه إبراهيم من ولاية العهد وحبسه..

قيل ..
كان إبراهيم يُضرب في حبسه بحجارة من ثلج حتى مات برداً بعد خمسة عشر يوماً.. ولا أثر على جسده..
شهد القضاة على موته من غير سبب ولا أثر..
حُمل إلى أمه على حمار ومعه كفنه.. فدفنته..

وفي هذه السنة..
سيّر المعتز جيشاً إلى المستعين فقضى عليه..

قيل..
إن المستعين طلب من القائد التركي سعيد بن صالح أن يمهله حتى يصلي ركعتين قبل قتله..
فلما كان في السجدة الأخيرة..
قتله وهو ساجد..

ثم دخلت سنة خمس وخمسين ومائتين..
وفيها.. كانت الأحداث الكبار.. وبداية الأمور
الجليلة..

العدل..

باللونين الأحمر والأخضر..
على قماش من حرير..
كتب..
«إِنّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنّ لَهُمُ الْجَنّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّه فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّه فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ»
سأله صاحبه..
لم اخترت هذه الآية شعاراً لرايتنا..
أجاب..
إن المؤمنين وقد اشتروا أنفسهم لم يعودوا بعد عُرضةً للرق والعبودية..

خرج ورجاله في السحر من ليلة السبت لليلتين بقيتا من شهر رمضان سنة خمس وخمسين ومائتين..
تعرض في الطريق لعبيد رجل يُعرف بالعطّار..
أطلقهم وأسر وكيلهم..
كانوا خمسين غلاماً..
سار إلى موقع آخر..
حرر خمسمائة وأسر وكيلهم..
ثم خمسين..

مائة..
ثمانين..
جمعهم ووعدهم بأن يرفع أقدارهم ويملّكهم البيت والمال.. وأن يبلغ بهم أعلى الأحوال..
وأقسم أن لا يغدر بهم أو يتخلى عنهم أبداً..
ثم خاطب وكلاء العبيد الذين أسر..
لقد أردت أن أضرب أعناقكم لما كنتم تأتون إلى هؤلاء الغلمان..
استضعفتموهم وقهرتموهم وفعلتم بهم ما حرّم الله..

يوم عيد الفطر..

خطب في المسجد وأعلن ثورته..
أعلن..
أنه ما خرج لعرض من أعراض الدنيا.. وما خرج إلا غضباً لله ولِما رأى عليه الناس من الفسادِ في الدين..

اسمه علي بن محمد.. ثائر عرفه التاريخ بـ..
صاحب الزنج..

سترسل لنا الدولة جيشاً بعد جيش..
لا بد من التسَلّح..
نغير على القُرى المجاورة..
ننهب السلاح والمؤن..
على أن لا نتعرض للناس..
أجاب علي بنِ محمد..
ولا نؤذي أحداً.. إنما نريد أموال السلطان..
فعليه خَرجنا..

بدأت الثورة تشتعل..
تمتد..
تطاير شررها..
التف الزنج حول صاحبهم يقاتلون..
تركوا سباخهم المالحة..
مستنقعاتهم..
بعوضهم..
أمراضهم..
سياطهم..
جلاّديهم..
والظالمين..
وفرّوا فِراراً بلا عودة..
يحملون أحلامهم في مِعدٍ خاوية..
أمامهم الحرية أو.. الموتً

دارت المعارك بين جيشين..
جيش من المرتزقة الترك..
يحمي السلطان والإقطاع..
وجيش.. أو ما يسمى جيشٌ.. من رجال لا يملكون إلاّ لحظةً..
لحظةٌ بلا أمس ولا غد..
وفي ذاكرتهم جروح.. تنزف..

قال علي بنٍ محمد..
عشت فقيراً في سامراء..
أجوع.. لا أجد ما آكله..
أتردد على خدمٍ في القصر..
يطعمونني..
أسمعهم يتحدثون عن بذخ الأمراء..
ترف الوزراء..
سطوة الحريم..
طغيان عسكر التُرك..
خلفاء ألعوبة.. لاهين بأحضان الجواري..
يتحدثون عن ستين ألف صُرفت على ختان صبي في القصر..
وأنا وآلاف الفقراء نبحث عن لقمة طعام..
أتذكر.. أغضب.. أقاتل..
أمضى الأسلحة.. ذكريات أليمة..

الزنج جالسون..
أحدهم يأكل..
قال..
لم أعرف الشبع.. قبل اليوم.. إلا سَماعاً..

قال صاحبه..
بالأمس لم أجد سيفاً أقاتل به..
قاتلت بهذا..
ورفع بيده طبق طعام فارغ..

ثالثهم كان ساهماً..
يتذكر يوم عُرض في السوق..
تقدم أحدهم عرّاه وتحسسه قبل أن يدفع الثمن..

آخر يتحدث عن شبكةٍ التفت عليه كبحر من رمال..
كلما تحركت فيها ازددت غرقاً..
خارت قواي..
وجدت نفسي على سفينة في البحر..
كنت أفكّر في أمي..
كيف أخبرها أنني غير عائد إليها..
الآن تبكيني كما بكت أخي الأكبر..
كانت تتمنى أن يكون تمساح قد ابتلعه ولم يسقط في أيدي النخّاسين..

فر الزنج من أعمالهم..
لم يتركوا وراءهم أهلاً ولا بيتاً..
انضم إليهم أعراب وفقراء ومشردين..
قاتلوا ببسالة..
صاحِبهم علّمهم..
لا تهاجموا قريةً إلا إذا تحققتم أن أهلها أعداء
ثبت عداؤهم..
ولا تتعرضوا لأموال الناس ولا تؤذوا أحداً..

تصدّى علي بن محمد لسفنٍ..
عرف أن راكبيها من الحجيج..
استضافهم..
ناظرهم وأكرمهم ثم ردهم إلى سفنهم..
أهدوه بِساطاً يحملونه.. أهداهم بساطاً
ببساط..
استحلفهم أنه لا مال ولا رجال للسلطان معهم..
قالوا..
معنا رجل من أصحاب السلطان..
حلف الرجل وأقسم أنه ليس من أصحاب السلطان
وإنه خرج في عمل إلى البصرة..
أخلى سبيله وسبيلهم وأبحروا إلى حَجِهم..

على الجانب الآخر..
سقط البحراني.. قائد من الزنج.. جريحاً بأيدي العباسيين..
أمر المعتمد ببناء دكه في موضع في سامراء..
جلس عليها.. يتفرج..
اقتاد الجُند الأسير أمام الدكة..
ضُرب مائتي سوط.. بالتمام..
قطعت يداه ورجلاه ثم خبط بالسيوف ثم ذُبح ثم أحرق..
والخليفة يتفرج..

القسوة.. تزيد النار اشتعالاً..

دارت معارك شرسة..
الغلبةُ فيها للزنج وصاحبهم..
قاتلوا جيش الدولة..
قهروا عسكر الترك وقادتهم في مواقع عنيفة..
احتلوا مدناً..
توسعوا وسيطروا.. دخلوا البصرة..
فكان أوج انتصاراتهم والضربة الموجعة للخلافة العباسية..

في بلاد فارس..
اندلعت ثورة «الصفارين»..
حكمت البلاد.. واستولت على نيسابور..
وشكّلت خطراً شغل الدولة عن الزنج وثورتهم..
فهدأت أحوالهم واستقرت أمورهم.. لزمن..

في تلك الأيام..
وصل الحسين بن منصور الحلاّج إلى البصرة..

البذرة تُنبتُ شجرة..
الشجرة.. تضرب بجذورها في الأرض..
تستوي على ساقها ولا تُخلع..
التفت رميس.. القائد العباسي إلى رجاله..
ما لا يؤخذ بالقوة يؤخذ بالحيلة..
نرسل إلى صاحب الزنج..
نعطيه الأمان لنفسه وأهله..
ندفع له خمسة دنانير عن كل عبدٍ يعيدُهُ إلى مولاه
فإن قَبِلَ.. فَقَدَ رجالَه وفَقَدوه..
ثم.. نطحن الحَبّ كُلّه..

استمع علي بن محمد إلى وفد العباسيين..
تأمّلهم لحظات..
وقف وخرج..

رجاله قلقون..
جلس.. يحدثهم..
لن أتخلى عنكم أبداً.. ها أنذا معكم في كل حرب أشرككم فيها.. وأخاطر معكم فيها بنفسي..
فما خرجت لعرضٍ من أعراض الدنيا..
هذا ما كان من أمر علي بن محمد في بداية ثورته..

يقولون..
حرّم الخمرة على أتباعه..
خرج على الدين..
يستحل ما حرم الله..
منع الإغارة على القرى الآمنة..
عدو الله والمسلمين..

ويروون..
أن رجلاً من أهل القادسية قتل رجلاً من الزنج
فثاروا..
طلبوا أن ينهبوا القرية وأهلها..
فاستنكر علي بن محمد..
«لا سبيل إلى ذلك دون أن نعرف ما عند القوم
وهل فعل القاتل ما فعل عند رأيهم.. ونسألهم أن
يدفعوه إلينا.. فإن فعلوا وإلاّ ساغ لنا قتالهم..»

الوجوه صحف منشورة..
غداً أسافر إلى علي بن محمد..
فكّر الحلاج.. لعلي.. في وجهه.. أقرأ الحقيقة..

في عينيه الأُفق.. حُلماً..
على وجهه البراءة.. خَلقا..
والقسوة.. خطوط رسمها الفقر ويد الزمان..

مُرحّباً.. أشار إلى طعام..
- ألا تأكل..
شاكراً..
- لست بجائع..
تبسّم لِلحظة..
- أول شبعان يأتي إلينا..
لم سعيت إلي..
أجبت..
- لم أسعَ إليك.. نحن.. التقينا..
كنّا في طريقين..
إلى السماء نظرنا.
نجمة لمعت..
بها اهتدينا ومشينا..
وفي طريق واحدٍ.. التقينا..
- كأنك شاعرٌ..
- بل طالب عِلم..
قصدت معلمَيً التستري.. شوقاً..
- وما علّمك..
إنّ شُكرَ العلم.. العملُ به..

- هذا قديس صادق..
لو عملنا بما نعلم لخرجنا من الظلمات إلى النور..
لو وضعوا زكاة المسلمين في موضعها.. ثُمُناً في الرقاب وعتقها..
أكنت ترى عبداً يقاتل معي؟
لو أعطوا نصفها للفقراء والمساكين وابن السبيل والغارمين.. أكنت ترى مُعدماً يَخرجُ شاهراً سيفه؟
أكنت ترى زنجاً أو صاحب زنج؟

أقَطعوا رجالهم البلاد والعباد..
ازداد الغنى وازداد الفقر..
أراد أهل الإقطاع قِططاً من خشب تصطاد ولا تأكل.. عبيداً يعملون ولا يُؤجرون وإن جاعوا لا يُطعمون..
أحيوا سنة الجاهلية الأولى.ز النخاسة..
أحضروا الحطب من أرض الزنج..
صبّوا عليه زيتَ الظلم أشعلوه بالقهر..
رَضيَ الحكّامُ وصَمتَ العلماء..
والأمة بين حجري رحى.. جورٍ وصمت..
الجائع لا يحتاج فتوى لثورته..
خرجوا على الله فخرجنا عليهم..

صمت لحظةً..
نظر في عيني..
أحسست أنه يخاطب قلبي..
- في مثل هذا الزمان.. من يعمل بما يعلم..
يُقتل..

أرى غير ما يُروى وأسمع غير ما يُقال..

صدّقِ ما ترى لا ما تسمع..
حسناً أنك أتيت..
قد يستيقظ التنين يوماً فيدوسنا..
يومها.. لن تعرف ما أردت أن تعرف.. ستعرف
ما يريدون لك أن تعرف.. فالتاريخ ليس ما يحدث
بل ما يُكتب.. والذين يكتبون هم.. الرابحون..
تبسّم كأنما تذكّر..
قل لي..
وأنت تمشي في طريقك.. إلى أي نجمةٍ كنت
تنظر..
قلت..
إلى نجمةٍ اسمها العدل..

يروي الرابحون..

توالى الليل.. توالى النهار..
من مات مات..
ومن عاش عاش..
غربت شمسٌ وأشرقت..
لتكتمل قصةٌ تُروى..

رجع الحلاج إلى البصرة.. وعاش..
طلب الحقائق من أهلها..
دائما.. كان في قلبه صدى صوتٍ يُحبّه..
صوتٍ علي بن محمد..
ودائماً.. كان يسعى لإخباره..

في أقاصي الشرق.. لفظت ثورة الصفارين
أنفاسها وخمدت..
تلفّت التنين..
شوكة الزنج في خاصرة العباسيين.. ما زالت..
مشى..
يريد أن يدوس كل شيء..
علي بن محمد قرأ الحكاية.. قرر أن يموت.. واقفاً..

يروي الرابحون..

أن الموفق تولى قيادة الجيش أيام أخيه الخليفة
المعتمد.. قضى على ثورة الصفارين في فارس..
وبدأ يعُدُّ العدة لحرب الزنج..

يروي الرابحون..

أنه كان حسن السيرة.. يجلس للمظالم فينصف
الناس.. عالماً بالأدب والنسب وسياسة المُلك..

ولا يروي الرابحون..

أنه يركب حصاناً لكنه ليس بفارس..
يقتل بعد الانتصار.. ولا يعفُّ عند المغنم..
حربه قذرة..
تعتمد التجويع والبطش.. ترهيباً..
شراء الذمم بالمال.. ترغيباً..
قرّب علماء السلطان..
أفتوا..
أن الخليفة ظلُ الله في الأرض والخروج عليه
خروجٌ على الله..

انتشرت أقاصيص الوضّاعين..
«.. دخل الزنج قرية.. استباحوا نساءها..
دخلوا مدينةً.. نهبوا أموالها ودمروا مساجدها»..

أرسل الجواسيس ينقلون أخبار الزنج وتحركاتهم..
حشد عشرة آلاف مقاتل.. فارس وراجل..
يساندهم أسطول من سفن حربية متقنة الصنع
عالية الكفاءة.. وولّى ولده أبي العباس القيادة..

وبدأ القتال..
رجحت كفّة الزنج..
كثرت في صفوف العباسيين الخسائر..
أدرك الموفّق أن خصمه خبيرٌ.. عنيدٌ.. مقاتل..
فتولّى القيادة بنفسه..
أكمل عُدّته وعتاده..
جمع جيشاً إلى جيش..
هاجم «المنيعة».. إحدى معاقل الزنج..
سالت دماء..
تساقط رجالٌ كأوراق شجرٍ في خريف عاصف..
فاحت رائحة الدخان والموتً والدمار..
استبسل الزنج في دفاعهم لكن العدد تكاثر على
الشجاعةِ فانسحبوا من المدينة..

سمع الحلاّج..
أن الموفق هدم الأسوار وأحرق ما بقي من سفن..
هدم ونهب وأباح المدينة لجنوده..

كتب الخليفة إلى صاحب الزنج..
«... إن أنت نزعت عما أنت عليه من الأمور التي يسخطها الله ودخلت في جماعة المسلمين محا ذلك ما سلف من عظيم جرائمك وكان لك به الحظ الجزيل في دنياك..»
لم يتلق الخليفة جواباً على كتابه..
أدرك أن عليّاً لن يتراجع ولا يريد الحظ الجزيل في دنياه وأنه.. سيقاتل..

نشوةُ النصر تلهب الحرب..
قديماً قيل..
آخر ما يخرج من قلوب الصديقين.. حب الرياسة
فكيف بغير الصديقين..
يقاتلون ويقتُلون ويقبِضون على جمرِ السلطة..

الحرب.. لا بد لها من أعذار حقيقية وغير حقيقية تكسبها شرعيةً.. تبررها..
الزنجُ مارقون من الدين.. أفتى العلماء بذلك..
ومن ليس معنا فهو ضدّنا..

لا بد أن تُلوّثَ جميع السيوف فلا يخرج في قادم
الأيام سيف يصرخ.. الزنج مظلومون..

الزنج يدعون إلى العدل..
الدولة تدعو إلى الثروة..
والثروة أحب إلى الناس من العدل..

أقبل تُركاً وخزراً وروماً وديلماً ومغاربةً وزنجاً..
يقدّمون طاعتهم وسيوفهم للثروة..

صرخ الخليفة..
وأين قبيلة عبد قيس بين الوافدين..
أهُم معنا أم مع ولدِهم.. صاحب الزنج؟
سمعت القبيلة صدى الصرخة..
فُهمت الرسالة..
الحياة مع الخليفة أم الموت مع علي بن محمد..
واختارت الحياة..
أرسلت فرقة تقاتل في جيش العباسيين..

تكالبت القوى على ثورة الزنج..
أهل الإقطاع.. تزلزلت مصالحهم..
المتطوعون.. أفتى علماؤهم أن الثورة زيغ وأن
حربها طريق إلى الجنة..
مواردُ الدولةِ والدعايةِ والقمعِ والسيوف تجمّعت
في حصارٍ لا يرحم..
سُدّت نوافذ المؤن على الزنج..
أضعفهم الجوع.. أنهكهم..
يتفرّقون في القرى والأنهار..
يبحثون عن قوتٍ من سمكٍ وتمر..
جيش العباسيين ينتظر..
يتصيّدُهُم.. قتلاً وأسراً..

تعبت أسوار «المختارة» من طول الحصار وأُنهِكت..
فتح العباسيون ثغوراً في أطرافها..
تسللوا منها.. إلى وسط المدينة..
قَتلوا.. حَرقوا وعادوا يحملون رؤوس القتلى مع
الغروب..

يروي الرابحون..

الخليفة.. أعاد ترتيب صفوفه..
جمع أسطولاً من مئة وخمسين سفينة..

جيشاً من خمسين ألف فارس وراجل..
زحف براً وبحراً..
دخل «المختارة» من أسوارها المهدّمة..
إلى منازل صاحب الزنج..

دارت معركة طاحنة..
الهجوم كاسح..
الدفاع باسلٌ..
الدماء.. تسيل بلا حساب..
وقع بعضُ أبناءِ علي بن محمد وبناته في الأسر..
حملهم الجيش في انسحابه..

ولا يروي الرابحون مصير هؤلاء.. ربما لبشاعة هذا المصير..
هُدُمت أسوار المدينة..
قُطِّع النخيل وأُحرق..
زحف الجيش إلى المسجد الجامع.. يهدمه..
وقف الزنج في صفوف كأنها البنيان المرصوص..
كصفوف الصلاة..
يتلقى أحدهم الطعنة أو الضربة أو الرمية
فيسقط..
يجذبه مَنْ خلفُهُ أو جنبُهُ ويقف موقفه حتى لا
يدخل الخللُ على أصحابه..

يروي الرابحون..

الأجساد تفتتّتُ أمام الحديد..
حجارة المسجد تساقطت تحت المعاول..
العسكر فرحين بما يفعلونٍ..
جروح الزنج تنزف إصراراً..
العبودية والموت أمران أحلاهما.. الموت..

صمد بجراحه الخصمُ العنيد.. صاحبُ الزنج..
تراجع الخليفة.. يطلب العون وينتظر..
أقبل عليه عشرة آلاف مقاتل من مركز الخلافة..
جيش عَرِم من الترك والروم والبربر والسودان
يقودهم لؤلؤ.. المنشق عن جيش ابن طولون
ويبحث عن سيد جديد..

اشتعلت الحرب كألسنة اللهب..
من بيت إلى بيت.. من جدار إلى جدار..
حتى خرج رجل من بين الغبار والدخان..
يهرولٍ على حصانه..
بغيضاً كالشر..
كالحقد كالحا..
بيده رأس..
اللون لون الدم..

الريحُ ريح العنفوان..
يصرخ..
هذا رأس علي بن محمد..

حمل الخليفة الرأس بين يديه.. تأمله..
رأس لم ينحنِ..
أخذ رمحاً..
غرسه في الرأس..
رفعه عالياً رايةً كبرياء..
نظر إليه الناس.. ردّدوا..
قُتل علي بن محمد..

أبحر الخليفة عائداً عبر نهر أبي خصيب..
يُزيّن سفينته رأس علي مغروساً على رمح..
خلفه اثنان من قادة الزنج..
مصلوبان.. جزاء من خرج على الطاعة..
الناس على ضفتي النهر ينظرون..
بأيديهم يلوّحون..
وقلوبهم تبكي..

يروي الرابحون..

أن الزنج هاموا على وجوههم في القفار..

من مات.. مات جوعاً وعطشاً..
ومن عاش.. تصيّده الأعراب وأعادوه مكبّلاً إلى..
عبوديته..

ولا يروي الرابحون..
سالت دماء الأبرياء على التراب..
في التراب..
لامست جذور شجرةٍ..
سقتها..
أسقمتها..
أيبست أغصانها..
أوراقُها ذبلت..
وشاخت دولة العباسيين..
قَبل الأوان..

أجدُ على النارِ هدى..

العتمة.. تمتد من جفوني إلى الأفق..
الحزن في العين.. رمادا..
أهوي إلى قرارٍ بلا قرار..

من يملئون الحياة.. تملأهم الحياة..
أحلامهم..
آمالهم..
أفكارهم..
اختلطت بالتراب.. صريعة..

ويح السيوف.. كم شربت من دماء الناس..
ويح العدل..
ما أغلى ثمنه..
ويح الأرض أما كانت تتسع لاثنين..
ظالم ومظلوم..

الأرض عطشى تشرب دماء الشجعان و..
الجبناء..

ضاقت الأرض وانطوت.. فلا بُعد يُنسي..
ولا جناح.. أطير به إلى السماء..
أتجعلُ فيها من يُفسِدُ فيها ويسفك الدماء..

من نظر إلى الأرض.. رأى قدميه..
من تأمل السماء امتد بصره.. بلا نهاية.
من أحب.. أحزنه الفراق..

من كان فوق الأشياء.. كانت الأشياء.. تحتهُ..
الذي لا يعيش.. لا يموت..
من لا يملك.. لا يخسر..

الأول.. فلا شيء قبله..
الآخر.. ولا شيء بعده..
حيٌّ لا يموت..

الرحيل..

الرحيل في الأرض.. غُربة..
إلى السماء.. لِقاء..

أرى على البعد.. ناراً.. لعلي آتي بقبسٍ..
أو..
أجد على النار هُدى..

الرحيل..
الرحيل إلى بيت.. ضيوفه مكرّمون..
أيديهم لا تُرَدُ خاوية..
البيت الحرام.. بمكّة..
جبلٌ يعصِمُني من الماء..

النوافل.. قربان المُحبِّ لحبيبه..
القَبول.. عطاء الكريم لمن سعى..
إذا أحبني..
سَمْعُهُ.. به أسمع..
بصره.. به أُبصر..
ما رميت إذ رميت..
لكنه رمى..

عصا موسى الكليم.. عصا يتوكأ عليها..
يهش بها على غنمه..
وإذا جاء الأمر..
تلقّف ما صنعوا..
يومها.. يغيّر القادر الدنيا بتقي واحد..

الحج عرفة..
من عرف الله حجّ إليه..
ومن حجّ إليه عرفه..

رحل الحلاّج إلى مكة.. يجاور البيت الحرام..
يأوي إلى ركن رحيم..
لعلّه يستضيء بقبس من نور الحق..

أدلجت القافلة.. ليلاً..
قبيل تباشير الفجر..
إلى بيت الله الحرام..
صعدوا تلالاً كبّروا الله..
نزلوا وديانا سبّحوه..
ساروا أياماً وليالي.. وصلوا إلى «ذات عرق»..
ميقات أهل العراق..
توقفوا.. يتهيؤون لدخول المكرّمة.. مكة..

علّمه التستري.. صغيراً..
أن لكل رسم معنى..
ولكل فعلٍ إشارة..

أخذ ماءً طهوراً.. يغتسل..
فعلٌ وإشارة..
غسلُ الظاهر.. تطهير الباطن..
العين والبصر..
الأذن والسمع..
يتطهر من أدران الدنيا..

يمسحها عن صدره..
ينزعها من قلبه..
وشرّها الكِبر..

فقد يدخل الجنة مُذنب..
ولكن..
لا يدخلها من في قلبه ذرّة من كِبر..

يصرف قلبه عن غير الله..
«فإذا فرغَ القلب من الأغيار..
امتلأ بالمعارف والأسرار..»
دخل عالم الملكوت..

أمسك قطعة قماش أبيض..
يلف جسده..
رَسمُها.. الإحرام..
إشارتُها.. الكفن..
يتساوى فيها الغني بالفقير..
بني العباس بالزنج..
لفّها حوله وعلى كتفه..
ومشى خطوات..
وراءه الدنيا..
وأمامه.. الآخرة..

توقف..
قدمه تزن جبلاً..
يريد أن يرفعها..
أن يخطو إلى الأمام خطوة..
لا يقوى..
الدنيا حبال تجره إلى الخلف..
الحقيقة.. تناديه إلى الأمام..

فكّر
أول خطوة.. إلى الآخرة..
أكون صادقاً..
أنزعُ حب الدنيا من نفسي وأخطو..
أو..
أستدير.. وأعودُ من حيث أتيت..

تحركت القافلة..
الصحب ينادونه..
لا يجيب..
لا يسمع..
هو في الأعراف..
بين الجنة والنار..
في البرزخ..
يختارُ بين الموت و.. الحياة..

.. أشرق قلبه..
الحياة حلم نهايته اليقظة..
الآخرة حياة أبدية..
الدنيا فانية..

ركض.. يلوّح بيده..
يلحق بالقافلة..
إلى حياة لا موت فيها..

أنا أكرم الضيوف..
ضيف الرحمن..
يرتعش..
خطوات.. فأكون قاب قوسين أو.. أدنى..

البيت الحرام..
يشع مهابة وجلالا..

طاف..
لبيك.. عهد وميثاق..
لا شريك.. إقرارٌ واعتراف..
إن الحمد والنعمة لك..
فبهديك أنا هُنا.. وبعطائك..
والملكُ لك.. لا لغيرك..
لبيك..

السعي..

صَعدتُ إلى.. الصفا..
لا ماء.. لا سراب..
إلى.. المروة..
ركضتُ..
لا ماء.. لا سراب..

أُمٌ.. جَفّ حليبها..
رضيعٌ يبكي.. عطشاً..
قريةٌ.. نفذ ماؤها..
وشمس.. تلتهب..
الفناءُ يقبل من.. قريب..
يحثُّ الخطى..
الأم.. كالملسوع.. تركض في كل اتجاه..
بلا اتجاه..
تسعى بين الصفا والمروة..
تبحث عن قطرة ماء..
تحث الخطى..

الحلاج..
يحث الخطى..
بين الصفا والمروة.. يسعى..
يلبّي ويدعو..

تنادي..
الأرض صماء.. لا تسمع..
الحزن في القلب وفي العين دموع..
الأم تجلس.. تلهث..
تتأمل رضيعها..
لعلها النظرات الأخيرة..

الحلاج يهرول.. يدعو..

الرضيع يبكي..
يضرب الأرض بقدميه..
الأرض تتفجّر ينبوعاً.. يتدفق..

الحلاّج يهرول..

الأم تهرول..

الماء ينساب حول الرضيع..
تلملم الماء بكفيها..
الرذاذ يتساقط..

الحلاج يهرول.. يبكي..
بكاء الرضيع ليس كمثله.. دعاء..
اللهم أرجعني طفلاً كما كنتُ.. بريئاً..
أو..
جنيناً.. كما بدأت..
بلا حول ولا قوة..
ربِّ..
كن لي.. كما كنت لي حين لم أكن..

يوم النحر..

قال..
يا بنِي.. إني أرى في المنام أني أذبحُك..
فانظر ماذا ترى..
قال إسماعيل: الفتى..
الذي تفجرت لبكائه.. زمزم..
يا أبت افعل ما تؤمر..
ستجدني إن شاء الله من الصابرين..
إسلام لأمر الله..
وسيجزي الله المُحسنين..
وفديناه بذبح عظيم..

سمع الحلاّج.. جَلبه..
التفت..
رأى..
ثوراً.. ضخماً.. هائجاً..
رجالاً.. يسحبونه..
يعجزون..
بإصرار.. يقاوم مصيره..
موجةَ بَحرٍ هائج..
تلقيهم ذاتَ اليمين وذات الشمال..
وهم..

مِن ضعفهم.. يتساقطون..

يُقبل رجل نحيل..
بيده حبل..
يرمي طرفه..
يلتفت على ساقي الثور يهوى أرضاً..
يسرع آخرون..
يلقون حبلاً على ساقيه الخلفيتين..
يربطونه..
مكبّلٌ..
يجمع قوته..
يهتز كزلزال..
مرة..
مرتين..
ثم.. يسكن هادئاً.. مُنهكاً..

يقترب الحلاج..
ينظر إليه..
في عينيه وداعة لم يرَ مثلها..
استسلم وقد أدرك ما أدرك..

أرخى عنقه للسكين وانتظر..
يناديا الموت..

وليس علينا إلاّ أن نلبّي.. طائعين أو.. مرغمين..

من عين الحلاج.. نزلت دمعة..
التفت..
مشى..
أهذه نهايتنا جميعاً..

يفتح مصحفه.. يقرأ..
«وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فيه إِلَى اللّه ثُمّ تُوَفّى كُلُّ نَفْس مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ»
يقولُ العارفون..
هذه آخر آية من القرآن.. أُنزلتْ..
أُنزلت يوم النحر.. بعد النحر..

ربط الحلاج بين الآية وما رأى..
فهم الإشارة..
بكى..
للناس حجٌّ ولي حج إلى.. سكني..
تُهدى الأضاحي..
وأهدي مُهجتي ودمي..

من ناداه إلى الأهل.. الحنين..
طاف بالبيت..
ودّع..
بكى وسافر..
ومن عشق..
جاور..

من حجّ رجع كيومٍ ولدته أمه..
بلا أمسٍ ولا.. ذَنْبٍ..

التوبةُ..
أن تذكر ذنبك..
لا.. بل أن تتساه..
فمن يولد.. يولد بلا ذنوب..

ليل الصحراء.. يطفئ نهارها..
نسيمه..
همس النجوم للأرواح..
يوشوشها..
يحضنها..
يطيرٍ بها ومعها..
عالياً.. بعيداً..
إلى عالم من.. صفاء..
والأرض تطوى لمسافر الليل..

سكن الليل..
في حمى الكعبة..
صلى الحلاّج ركعتين..
جلس..
يتفكّر..
في خلق السموات والأرض..
خلق نفسه..

من لا يجد الحقيقة في نفسه..
لا يجدها في مكان بعيد..

كطفلٍ.. أريد أن أتعلم الكلام..
معنىً الكلام..
سجد.. يعني.. أطاع..

السجود طاعة..
وكل ما قرأت من العلم عن مقامات الارتقاء.. كلمتين..
أسجد وأقترب..
تلك هي الطريق إلى الله..
بدايتها ونهايتها..
وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحب إلى مما افترضته عليه..
يخطو.. يرحل .. يرتقي..

يتقرب بالنوافل..
يقف على باب الحبيب..
ينادي..
يطرق الأبواب..
يرمي عليه الحبيبِ وردة.. وردتين..
يفوحُ القلب عطراً..
مِسكاً وعنبرا..
يسكن الحبيب سمْع حبيبه..
فبه يسمع..
وبصره..
فبه يبصر..
ويداه.. فلا تلامس إلا خيراً..
يمشي على هُدى..
إن سأل أُعطي..
وإن استجار.. أجير..
وإن مشى إلى الحبيب..
فتح الحبيب الباب..
وإليه هَرولَ.. معانقاً..

ألف ميل..
ألف ألف ميل تُقطع في خطوتين..
اسجد..
واقترب..

وليس جناح يحملك مثلَ.. الحُب..
قرر الحلاّج أن يقيم بجوار البيت ما شاء الله له
أن يقيم..
يتعرض لنفحات مباركة..
في أرض مباركة..

من الكتاب الكريم.. يُرتّل..
«فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا..»

ذ.. ك.. ر..
الشيءُ يُذْكَرُ بعد النسيان..
والنسيان طارئ على علم سابق.. يزول بالتذكّر
اذكروا الله..
أطردوا النسيان عن معرفته..
والكلُ عَرَفَ..
منهم من نسى..
ومنهم من حفظ المعرفة..
ومنهم من شطح عقله.. حفظ الفكرة وأضاع الطريق..
آمن بإله وتاه عقله..
فصور الإله..
وثناً..
حجراً..
صنماً..
شجرةً..
أو.. بشراً.. فعبده..

والعقل الذي لم يشطح.. لزم الحق..
آمن بالإله الحق..
الواحد.. الأحد.. الفرد.. الصمد..
الأول.. لا شيء قبله..
الآخر.. لا شيء بعده..
مالك المُلك..
ذو الجلال والإكرام..
له صفات الجلالة وهيبتها..
صفات الإكرام ورحمتها..
جليلٌ.. ودود..

لو كان للسفينة ربانان.. غرقت..
أو للسموات والأرض إلهان.. فسدت..

المعرفة تمت وسبقت في.. الفطرة..
قبل أن تحل الروح في الجسد..
قبل أن يصبح الطين.. قادراً.. فاعلاً..

حلّت الروح في الطين..
امتزجت به..
تحرّك..
خدعته الحركة..
ظن أنه قادر.. فاعل..

ينسى ما عرف..
وينسى العهد..
ألست بربكم..
قالوا بلى..
وما آيات الكون إلاّ.. ذِكراً وتذكيراً..
وما الرُسُل.. إلا ذِكراً وتذكيرا..
وما اختلاف الليلَ والنهار إلا ذِكراً وتذكيرا..

مضى يتأمل..
يسّبحُ في الذكر الحكيم..
«كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ»..
أبوايَ هما.. أبي وأمي..
كيف يذكر الطفلُ أباه وأمّه..
يجوع.. أمه ترضعه..
تحضن رأسه..
يستأنس بدقات قلبها..
يصحو في الليل.. توحشه الظلمة..
يبكى..
تمتد يدها.. تلامسه..
يخاف.. يركض إلى حجرها..
يلوذ بالأمن والأمان..
أبوه..
القوةُ.. القادرة..

القادرة على كلِ فعل..
الطفل يرى أباهُ الأقوى.. الأفضل..
الأجمل.. في هذا العالم..
الكمال المطلق..
يحمله نائماً..
يمسك بيده ماشياً..
يأتيه بالكساء والغذاء و.. اللُعبة..
كأنه.. يُنزل المطر..
فاذكروا الله كذكركم آباءكم..
ذكرُ الحاجة.. والحب..
أو.. أشد ذِكرا..

بدأ الحلاّج يُردد اسم الحبيب بلسانه..
تحرّك قلبه.. ذكر.. و.. ردّد..
صحت الذاكرة من غفوتها..
صمت الكلام.. صمت القلب..
من تذكّر.. لا يذكُرّ..
لأنه.. لا ينسى..

وداوم على الذكر بلا قلب ولا لسان..

كنت في أولِ الطريق..
لا أرى شيئاً إلاّ رأيت الله بعده..

دام الحال.. حتى ارتقيت..
ولما ارتقيت.. ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله معه..
ثم ارتقيت..
ولما ارتقيت.. ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله قبله..

رحلتْ من العُمر أيام وليالٍ..
وارتقيت..
تلاشى الشيء..
والذِكر..
والرؤية..
وما رأيت غير الله..
كان الله ولا شيء معه..
وهو على ما كان عليه.. ما زال..

وأيُّ الأرضِ تَخْلو منكَ حتّى
تعالوا يَطلبونَكَ في السماءِ
تَراهُمْ ينظرونَ إليكَ جهْراً
وهم لا يُبْصِرون من العَمَاءِ

الصوم..

فانتبذت بحملها مكاناً قصيا..
انتبذ.. الحلاّج.. بحمله.. مكاناً قصياً..

إلى جذع النخلة.. جلست..
جلس.. في ظل الكعبة..

ذكرت قومها.. بكت..
يا ليتني متّ قبل هذا..
يرتل..
وكنت نسياً منسياً..

جاءها الأمر..
فإما ترينّ من البشر أحداً فقولي..
يبكي ويُرتّل..
إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيا..
كصوم مريم..
نذر الحلاج صوما..
صمتاً..
سكوناً..
أَبْحَرَ.. في بحرٍ عميق..
السفر بعيد وشِراعي من طين..
ليتني كنت نسراً..
أطير..

أضربُ بجناحيّ..
رُوحاً.. أحلّقُ بين النجوم..
لعلي أرى ما لا.. أرى..
أسمع ما لا.. أسمع..
وعيناي قناديلٌ بين النجوم..
أرى الأفق.. ما بعد الأفق..
الخيط الأبيض.. يتبين..
الخيط الأسود.. ينجلي..
الفجرُ يُقبل..
فجرُ الدنيا و.. فجرُ الروح..
وأهزُّ النخلة..
فتُساقط عليّ رُطباً.. جنيّا..

«يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنّاسِ»..
يولد الهلال..
نصوم..
ينمو.. يوماً فيوماً..
يكتمل.. قمراً..
يوماً فيوماً.. ينحني..
يدبّ إلى بيت المحاق..
تسابيح المؤمنين..
طيوراً تحلّق في السماء..
تدقّ أبوابها.. تُفتح..

ليلة القدر..
تكريمٌ..
عطاءٌ..
سلام.. حتى مطلع الفجر..

طفلاً..
ألتحفُ بشال..
أمشي في اللّيل.. إلى المسجد.. مع أبي..
مسجدنا..
أَسرجةٌ وقناديل..
نورها.. يرقص ونسيم الليل..
سألته..
يا أبي.. ما ليلة القدر..
أجاب..
ليلة مباركة.. تُفتح فيها أبواب السماء جزاءً للصائمين..
كنت من الصائمين..
فرحت..
نظرت..
انتظرت..
لعل بابها يفتح.. فأراهُ..

رحلت أهلّةٌ..
أقمارٌ..

سنونٍ..
عاماً بعد عام..
رحل أبي.. حزنت.. حزنت كثيراً..
كبرت.. كبرت كثيراً..
وما زلت أنظر إلى السماء..
أنتظر..
لعل بابها يفتح.. فأراه..

من أخبار الحلاّج..

دخل الحسين بن منصور إلى مكة، وكان أول دخوله..
جلس في صحن المجلس سنةً لا يبرح من موضعه إلا للطهارة أو الطواف، ولا يبالي بالشمس ولا بالمطر..
وكان يُحملُ إليه كلّ عشية كوز ماء ليشرب، وقرص من أقراص مكة، فيأخذ القرص ويعض أربع عضّات من جوانبه، ويشرب شربتين من الماء، شربة قبل الطعام وشربة بعده، ثم يضع باقي القرص على رأس الكوز فيُحملُ من عِنده..

الطريق..

النفس جواد جامح..
تمتطيه الإرادة..

بين جموح النفس وصلابة الإرادة..
تدور معركة..
يسقط الإنسان..
مرة.. مرتين.. ثلاث..
تمتطي الإرادة الحقّة صهوة الجواد من جديد..
وتثابرُ حتى تنتصر..
فإذا الجموحِ.. طاعة..
والعقل عِقالٌ يقود النفس طيّعة.. هنيّة..

طريق الحلاج..
الذكر..
والصلاة..
والصيام..
وحبس النفس عن شهواتها..

صدق الحلاج وعده..
يذكر الله قائماً.. قاعداً.. وعلى جنبه..
حتى أصبحت أنفاسه.. ذِكرا..
يصلي آناء الليل وأطرافَ النهار..
يصوم على قليل من الإفطار..

بضع لقيمات يُقِمْن أوَدَهُ..
لا ينتقل من شمسٍ إلى ظل..
ولا من قرٍ إلى حرٍ..
خلع الدنيا عن جسده..
هذا ظاهر الزهد..
وباطنه.. أن تنزع حبها من قلبك..

ظل يجاهد .. يكابد..
تتزين له الدنيا .. لا ينظر إليها..
تناديه .. لا يسمع..
يئست منه..
تستّرت واحتجبت..

يقول صاحبه..
صحبت الحلاج سبع سنين فما رأيته ذاق من الأدم سوى الملح والخلّ ولم يكن عليه غير مَرْقَعَة واحدةَ وكان على رأسه بُرنس، وكلما فُتح عليه بإزار قبله وآثر به.. صدقةً.. ولم ينم الليل أصلاً إلا سويعة من نهار..

كان يقول..
من أراد أن يصل إلى المقصود..
فلينبذ الدنيا وراء ظهره..

سأله تلميذه..
أوصني..
قال..
هي نفسك.. إن لم تشغلها.. شغلتك..

ويقول لصاحبه.. في أواخر أيامه..
.. وفي خمسين سنة صليت صلاة ألفي سنة..
كل صلاة قضاء لما قبلها..

يسأله صديقه..
يا شيخ.. كيف الطريق إلى الله..
فيجيب..
خطوتين وقد وصلت..
اضرب بالدنيا وجه عُشّاقِها وسلّم الآخرة إلى أربابها..

ختم القرآن في صلاته.. مرةً.. قال بعدها..

من ظنّ أنه يرضيه بالخدمة فقد جعل لرضاه ثمناً..
ورضا الله عطاءٌ منه.. لا يقدّرُ بثمن..
.. ومضى عام..
ثلاثمائة وخمس وستون يوماً..
صام الحلاج نهارها وأقام ليلها..

يذكر القول المأثور..
إن قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار..
وإن قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد..
وإن قوماً عبدوا الله شُكراً فتلك عبادة الأحرار..
ويزيد..
وإن قوماً عبدوا الله حُبّاً وتلك عبادة العاشقين..

يضنيه الشوق فلا ينام من اليوم إلاّ ساعة..
يرحل إلى الله ويرتقي..
مسافرٌ لا يحط الرحال..
يناجي ربه..
أسألك بقدسك الذي تخصصتَ به عن غيرك..
أن توحِشني عن العالم وتؤنسني بمناجاتك..

حبيبٌ لا يريد أن يخلو بغير حبيبه..

من أحبّ وشاهد..
مَثَلُه.. قيس بن الملوّح..
يقول..
نظرت إلى ليلى فانطبعت صورتها بين عيني..
أُغمضت حتى لا أراها..
رأيتها مغمّض العينين..

ويقول..

صحبني أبي إلى مكة..
طُفنا بالبيت..
قال..
أدعو الله أن يخلصك من حب ليلى..
تعلقت بأستار الكعبة.. ودعوت..
اللهم زدني بليلى حُبًا..

من أحبّ وفارق..
ابيضّت عيناه من الحُزن..
وإذا ألقوا على وجهه قميص يوسف يأتِ بصيرا..

هذا حال من أحبّ الصورة.. فكيف حال من أحبّ المصوّر..

صهيب بن سنان.. الرومي..
قال عنه الحبيب المصطفى..
«صهيب لو لم يعرف الله لما عصاه..»
هواه لا يخالف المشيئة..
ولا يشاء إلا ما يشاء الله..
الخير له طبعٌ..
كالوردة.. عطرها..

واليمامة.. هديلها..

الحلاج يجلس يتفكّر..
أمامه..
سقطت قطرة ماء..
لامست الأرض..
استقرّت..
شعاع الشمس يمتزج بالماء..
القطرةُ تصغُر..
قليلاً.. قليلا..
تختفي تماما..

أبي.. أين ذهبت..
رحلت يا ولدي.. مع السحاب..
إلى أرضٍ بعيدة..
تهطلُ يوماً..
مطراً وزرعا..
مثلُ قطرة الماء.. أنا..
أشرقت شمس الحقيقة..
تلاشت «أنا» وبقي «هو»..
مع السحاب.. رحلت ذاتي..
لعلها.. تُهطل يوماً..
مطراً وزرعا..

في أرض بعيدة..

من خرج بنفسه فمع نفسه..
من خرج بالله فبالله ومع الله..

أتيت مكة مجاوراً.. عابدا..
وقد خرجتِ عن نفسي..
أعود منادياً بصوت الحق..

عزم على السفر..

ومضى عام..

كثير من التقوى وبضع لقيمات..
رتب أمره مع قافلة تتجه شمالاً.. إلى العراق..
عاد إلى البيت الحرام ليكون آخر عهده بمكة..
طواف..

يتأمل البيت العتيق..
عيناه.. تدمع..
يمشي إلى الحجر الأسود..
يتوقف..
استدار وجعل الكعبة عن يساره..
بسم الله.. الله أكبر...
اللهم إيماناً بك..
يطوف..

طفت البلاد طفلاً.. مع أبي..
ألتصق بجنبه ليلة البرد..
بعيداً عنه.. أحسست الغُربَة..
اللهم اغفر لوالدي وارحمهما كما ربياني صغيرا..

صور حياته تطوف معه..
هجرة وسفر..
أطفال يحفظون القرآن.. يرتلون..
أتيتك ربي بأشواقي وأحزاني..

أعود.. أتوهج حُبّاً..
لو ألقي مما في قلبي منه ذرة على جبال الأرض لذابت..
ولو كنتُ يوم القيامة في النار..
لأطفئ حبي النار..

أسألك بنور وجهك الذي أضاءت به قلوب العارفين..
أن لا تسرّحني في ميادين الحيرة..
وأن لا تردّني إليّ بعد ما اختطفتني مني..
ولا ترِيني نفسي بعد ما حجبتها عني..
فيكونَ نصيبي من الحُب اللوعة..
ومن العُشق الهُجران..
ومن المعرفة الحسرة..

يطوف ويدعو..

اللهم اكتب علي العدل الذي كتبت على نفسك..
وحرّم علي الظلم الذي حرّمت على نفسك..

طاف سبعاً..
رفع يده يلوح بالوداع..
يتراجع ولا يلتفت..

بصره متعلق بالكعبة..
حتى خرج من البيت الحرام..
بكى..
يتذكر رسول الله يوم هجرته..
يتذكره يُخاطب مكة..
إنّك لخيرُ أرض الله عزّ وجل..
وأحبُّ بلادِ الله تعالى إليّ..
ولولا أني أُخرِجْتُ مِنْكِ لما خرجت..

ردّد يدعو..
اللهم لا تجعل هذا آخر عهدي بالبيت..

أسرع.. يلحق بالقافلة..

سنوات الهرج..
تكثر فيها الفتن ويكثر فيها القتل..

سنة اثنتين وسبعين ومائتين من الهجرة..

في هذا العام..

غلا السعر في بغداد..
قلّت موادٌ كالزيت والصابون والتمر..
ضجّت العامة هاج الناس..
خرجوا إلى الأسواق..
خرج إليهم العسكر..
قَتلوا من قُتل وجَرحوا من جُرح..

في هذا العام..

كان ستة من قوّاد الزنج محبوسين في دار رَجل
يُدْعى.. فَتح السعيدي..
كتب الخليفة الموفق إلى فتح أن يرسل إليه برؤوس
هؤلاء الستة..
دخل إليهم فتح..
يُخرج الأول فالأول منهم..
يذبحه غلمانه..

يقطعون رأسه..
يلقون جسده في بالوعة ماء في ساحة الدار..

ثُم..
أرسل الرؤوس.. الستة.. إلى الموفق..
تأملها..
عبث بها بعود كان في يده..
لم يشف ذلك غليله..
طلب جثث القتلى..
أُخرجت من بالوعة الساحة وقد انتفخت وفسدت رائحتها..
أُرسلت إلى الخليفة فأمر بصلب الجثث في بغداد .. أجساداً بلا رؤوس..

القافلة تتجه شمالاً..
تمشي وقلبه يسابقها..
الحسين بن منصور.. الحلاج.. شاب على
مشارف الثلاثين..
مكتهلٌ في شبابه..
بعيدة عن الشر أَعْيُنُه..
بطيئة على الباطل أَرجُلُه..
أضنته العبادة وأنحله السهر..
يرزخ تحت أشواق الروح ويُضني قلبَه ما يري..

كأنه غاب ألف عامٍ في خلوته..

بعد ألف عام..
لعل الدنيا تغيّرت..
يسمع أحاديث المسافرين في سمر الليل..
الحال هو الحال بل.. وأسوأ..
أذرع القهر تزداد طولاً.. تزداد عُنفا..

القصة..
ظالم ومظلوم وثائر..
لا يتغيّر فيها إلا أسماء شخوصها..
الخليفة.. في بحر الشهوات.. سابحاً .. ضاع وأضاع..
البطانة.. عسكرٌ وساسة.. بطشوا ونهبوا..

الأمة..
أضيع من الأيتام على مأدبة اللئام..

الثوّار..
صرعى.. قُتلوا وصُلبوا وقُتّلوا..

أشواقي إلى مكة لا تنقضي..
صوم نهارها وقيام ليلها..
الزاد.. في فناء الكعبة.. زادٌ للعمل..
وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله..

القافلة تتجه شمالاً.. إلى أرض الأهواز.. وقلبه يسابقها..

في هذا العام..

تحركت بقية الزنج..
نادوا بابن صاحب الزنج.. أنكلاي.. قائداً لهم

بعث الموفق إليهم جيشاً..
قُتلوا..
حُملت رؤوسهم إليه وصُلبت أبدانهم في بغداد..

مراتع الصبا تسكُن الروح..
رائحتها رائحة الأم..
الأطهرُ.. دائماً..

تَستُر..

تلوح في الأفق..
قبابها.. ومآذنها..
فواحةً بأهلها..
كأن أبا عبد الله التستري فيها.. ما زال.. راكِعاً
ساجداً عابداً..

دخل الحلاج بيته..
غرفة ضيّقة.. اتسعت بالمحبة..
بلا نوافذ..
أنارها الرضا..
استراح بقية يومه وليلته..

في الصباح..
بدأ يطوف بأطراف المدينة..
يقصد أحياء الفقراء..
يتعرّف إلى مساجدهم..
مساجد بلا أبواب ولا.. أسوار..

مفتوحة ليل نهار لعابدين ومساكين لا يجدون
مأوى يبيتون فيه..
يردّد في نفسه..
مساجد بلا أسوار..
تدخلها الملائكة وتطوف فيها..
مع الفقراء والملائكة..
أبدأ دعوتي..

انقضت الصلاة..
وقف.. يتكلم..

الشمس ضياء..
القمر نور و.. منازل..
لتعلموا عدد السنين والحساب..
آيات لقوم يعقلون..
وهل ترى في خلق الرحمن من تفاوت..

جلس الناس في حلقات.. يستمعون..
كلام نضر.. يولد نقيّاً.. صافياً..

في آيات الكون نقرأ آيات الحياة..
السماء رفعها ووضع الميزان..
ألاّ تطغوا في الميزان..
الأمر لا يقوم إلا بالعدل..
لا تستوي السموات ولا الأرض إلاّ بالعدل..
ومن تجاوز العدل.. طغى في الميزان..

إذا كانت دولة بني العباس قد أينعت وأزهرت..
اشتدّ عُودُها وقام جذعُها..
طالت وتطاولت..
فالقمر قدّرناه منازل..

حتى عاد كالعرجون القديم..
غصن يابس.. منحنٍ.. محدودب..

الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء..
اختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه
الرياح..

عجب الناس مما يقول..
وبينهم..
كانت عيون..
تسمع.. ترى.. تحفظ ما يقول..

التفت صاحب الشرطة إلى رجاله.. البصاصين..
- اتبعوا الرجل في تجواله..
اسمعوا ما يقول..
دسّوا عليه من يسأله..
لعله من بقايا الزنج أو من أصحاب الفتن..

دخل الحلاّج إلى المسجد..
صلّى جلس..
يذكر الله..
وقف..
يتحدث إلى الناس..
سأله أحدهم..
كيف نقيم العدل..
أجاب..
نعطي كل ذي حق حقه..
الفقراءَ.. أموالهم..
الناسَ.. أَمنَهم..
الزكاةَ.. أهلها..
نرُدُّ المظالم ونحقن الدماء ونحفظ العهود..

الخلافة عهد..
من كان خليفة رسول الله.. عليه أن يتبع أمرَ
رسول الله.. رحمة للعالمين..
الخلافة..
ليست مُلكاً يورّث..
الأحق بها.. الأجدرُ بها علماً وفضلاً وعملا..
هي حق لكل مسلم صالح يقيم العدل..
الأحق بها..
من يبكي يوم يتولّى.. من الله خشيةً.. خوف التفريط..

ويوم يموت.. لا يُورّث درهماً ولا دينارا..
قال بصاصٌ بين أهَل المسجد..
أترى العلماء أحقّ بها وأهلها..
- ومن غيرهم.. إذا عملوا بما علموا..
كيف يقود القافلة دليل تائه..

يجلس شاب لا يسمع ما يقال..
يتأمّل ملابس الحلاّج إعجاباً.. عباءة الصوفية
وخرقتهم..
قال..
يا سيدي..
حدثنا عن المقامات والأحوال..
قال الحلاّج..
الطريق خطوة..
من صدقَ الله.. صَدَقهُ..
لا مقامات ولا أحوال..
لا يبقى في الميزان إلاّ مثقال ذرّةٍ من خير..
أو.. بضع ركعات في جوف الليل ومناجاة الحبيب
حبيبه..
يتهامس رجلان في ركن بعيد..
لو سمعه أبو عمر المكّي شيخ الصوفية لخلع عنه الخرقة
التي ألبَسَه إيّاها..
كأنه يسمع ما يقولون..

أنا أخلعها عن نفسي..
وأستبدلها بملابس المتسوّلين..

أزاح الخرقة عن كتفه..

أكملَ..
إنّ الله لا ينظر إلى صوركم وإنما إلى قلوبكم
وأعمالكم..

وقف رجل..
- تتحدث يا سيدي عن العدل وأنا أدفع الجزية
والزكاة..
- هذا عجبٍ عُجاب.. كيف هذا..
- كنت كتابياً فأسلمتُ..
قالوا.. أسلمتَ حتى تتهرب من دفع الجزية..
أدفع الزكاة طاعة والجزية غصباً..
- وهل شقّوا عن صدرك..
ما بُعث رسول الله جابياً..
لا حق في أخذ المال إلاّ مَن ملك نِصاب الزكاة..
أما الجزية ممن أسلم..
الضرائب ممن عمل وزرع..
هذا إفقار للفقراء وإثراء لمن مَلَك..
اغتصاب لأموال المسلمين وأنت منهم..

- أهذا كلامه..
أحدهم.. أجاب..
كلمة.. كلمة..
متحفزاً.. وقف صاحب الشرطة..
مشى خطوات..
- الحسين بن منصور.. الحلاج..
لم يترك هذا الرجل أحداً..

كان يجلس مع صاحب الشرطة رجل اسمه «حامد بن العباس» يعمل جابياً للضرائب.. دميم القلب.. حقود.. قال..
هذا رجل خطر.. يهاجم السلطان وأعوانه..

ناحية الجبل.. مدينة صغيرة..
يطوف الحلاج بين مساجدها..
صلى العِشاء جماعة.. خرج..

العتمة..

اقترب منه رجال.. ينكرهم..
بلا سلام..
- صاحب الشرطة يطلبك..
وجوه بلا ملامح.. تغطّيها.. ظلمة الليل و.. ظلمة القلوب..

مشى..

طرقاتٌ ضيّقة..
مكان بعيد..
بناء يسكن جوف الليل..
ساحة..
غرف ضيّقة..
أبواب موصدة..
فتحوا باباً..
دخل..
أغلقوه..

هادئاً جلس..
ردّد لنفسه..
ما حدث لا بد أن يحدث..
يخافون الكلمات..

في الصباح..
- هل أنت قرمطي..
- لا
- أو.. لعلك.. من أصحاب الزنج..
- لا..
- نعرف.. نعرف..
ردد صاحب الشرطة..
- نعرف اسمك وكنيتك..
حركاتك وسكونك..
ربما أحلامك في الليل.. نراها..
لماذا تقول في المساجد ما تقول..
- العِلم..
العالِمُ.. إذا سُئِل.. يجيب..
وإذا أجاب يقول الحق..
وإذا قال الحق.. لا يترك له الحق صاحباً..
الإغواء يبتسم..
صاحب الشرطة يقول..
أبوابنا مفتوحة لأصحابنا.. دائماً..

الحلاج يجيب..
رحلت إلى باب غير الأبواب..
من رأى غير من أحب.. ما أحب..
صرخ صاحب الشرطة.. فَزِعاً..
دخل رجال..
- خذوه.. اجلدوه ودعوه يرحل..
وقف الحلاج..
مشى.. ساكناً.. مع الجلادين..
وصل الباب..
سمع صوت صاحب الشرطة..
- هدية صغيرة.. تتذكرنا بها..
توقف..
أكمل الصوت..
- أمسك عليك لسانك.. فإنه قاتلك..
لم يلتفت..
خرج من الباب.. إلى الساحة..

الصمت.. أحياناً.. سلاح المقهورين..
جُلد.. سبعين جلدة..
لم يصرخ..
لم يتأوه..
لم يئن..
انتصر على جلاّديه بصمته..

أثار السياط على جسده..
خطوط حمراء.. مزرقّة..
يحمل قلب ثائر..
أحلام عاشق..
يلبس ملابس المتسوّلين..

إلى الثغور..
أقاصي الدولة شرقاً..
يسافر وحيداً..
بين القبائل.. غير العربية.. غير المُسلمة..
يطوف..
يدعو إلى الإسلام..
قال له أحد العسكر..
هذه أراضٍ ستفتح قريباً.. لماذا تطوف بها..
أجاب..
الأرض التي نحتل بالسيف تُحرر بالسيف..
ولو بعد حين..
أما القلوب فتعمّر بالكتاب والعدل..
على يديه أسلم خلق كثير..
عاش بينهم..
يعلّمهم الكتاب والحكمة..

بعد خمس سنين..
يناديه الحنين إلى الأهواز..
الوطن والأهل..
يرحل.. مسافراً..

يرّوون.. ولا يرّوون..

ثم دخلت سنة ثمانٍ وسبعين ومائتين..
فيها..
تحركت القرامطة..

كان الكبار يزدادون ثراءً..
والفقراء الفلاحون.. «بين هارب حالٍ.. ومظلوم
صابر لا يُنصف..
ومستريح إلى تسليم ضيعته إلى المُقْطَع ليأمن شره..»

كان الفلاحون يلجؤون إلى أهل السلطة..
مقابل مبلغ من المال يدفعونه لحمايتهم من طُغيان
جباة الضرائب..
وكل هذا يجري بين..
«تشاحن السلطان وخراب العراق وفساد البلدان..»

تحركت القرامطة..

يروي الرواة..
«أنهم فرقة من الزنادقة الملاحدة..
أتباع الفلاسفة من الفُرس..
يبيحون المحرمات وهم أتباع كل ناعق إلى باطل..»

ويروون..
«أن رئيس القرامطة كان يأمر أتباعه بخمسين صلاة في كل يوم وليلة..»

زنادقة ملاحدة.. أم.. عُبّاد أتقياء..
يتركنا الرواة في حيرة..

يروون..
«أن حمدان بن الأشعث.. زعيم القرامطة..
عُرف بالزهد والتعبُّد..
كان أنصاره يسمّون أنفسهم المنصورين بالله..»
وأنهم.. «بنوا مساجد للمسلمين وكانوا يعلّمون أولادهم القرآن..»

يروون..
أنّهم «أمروا بإبطال التكاليف الشرعية.. وأنهم يزعمون أن الصلاة والزكاة والصيام والحج وسائر الفروض نافلةٌ لا فرض..»

يروي رواة السلطان..
تفلت الحقائق منهم.. بين السطور..
وفي السطور..
يكتبون ما يقوله السلطان..

القرامطة لم يتركوا أثراً..
منهم علماء وكتاب ومفكرين..
لهم كتبهم وأفكارهم..
أتتاثرت مع الزمان..
وطوتها الأيام..
أم طواها العباسيون..
أمرٌ غريب..
أكان العباسيّون أمهر الناس في حرق الكتب
وتدمير آثار المفكرين ومنع الناس من ذِكر حتى..
أسمائهم..

تحركت القرامطة..

«كل ذلك من ضعف الخليفة وتلاعب الترك
بمنصب الخلافة واستيلائهم على البلاد وتشتت الأمر..»
استفحل أمرهم..
أقاموا دولتهم..
امتدّوا من سواد العراق إلى البحرين..
حرروا الفلاحين من سادتهم..
أعادوا الأرض إلى أصحابها..

في دولتهم..
يعمل الجميع..

الرجال والنساء..
حتى الأطفال.. يرعون طيور البيوت مقابل أجر يومي..

تساوى الجميع في العمل والأجر..
وما يزيد عن حاجة الناس يوضع في بيت المال..
للجميع..

عدلٌ مُطلق..
تبعه المحرومون والفقراء..

الظُلم.. زرع الهشيم فانتشرت به النار..

وَيَحدُثُ..

في المحرّم من هذا العام..
قدم الموفق أبو أحمد.. القائد الذي حارب الزنج وقضى عليهم.. قدم إلى بغداد.. مريضاً يأكل النُقْرس جسده..
استقرّ في داره..
تورّمت رجلاه حتى عظُمت..
يحمله عشرون رجلاً على سرير..
قال لهم يوماً..
«ما أظنكم إلا قد مللتم مني..
ليتني كواحد منكم..
آكل كما تأكلون.. أشرب كما تشربون.. أرقد كما ترقدون.. في عافية..»
ولم يرقد الموفق في عافية..
مات..
بويع ابنه.. أبو العباس أحمد لولاية العهد بعد أبيه ولقّب بالمعتضد..
ومن «فضائله»..
«مُنعت كُتب الكلام والفلسفة والجدل بين الناس وذلك بهمة أبي العباس المعتضد سلطان الإسلام..»
يروون..

وفي هذا العام..
قتل المعتضد رجلاً من الزنج لجأ إليه. بالأمان..
أمر به فشُدّ على عمود خيمة..

لوّحه على النار حتى تساقط جِلدُه..
ثم أمر بضرب عنقه وصلبهُ لسبع خلون من المحرّم..

ثم دخلت سنة تسع وسبعين ومائتين..
فيها ..
توفي الخليفة المعتمد على الله..
وسبب هلاكه..
أنه شرب في تلك الليلة شراباً كثيراً وتعشى
عشاءً كثيراً..
مات حتف أنفه..
غسِّل وكُفِّن ودُفن..

ثم دخلت سنة ثمانين ومائتين من الهجرة..
فيها..
بنيت دار الخلافة في بغداد..
كانت داراً لبوران.. زوجة المأمون..
طلبها المعتضد..
فرشتها بما يليق من المفارش..
أسكنتها الجواري والخدم..
أعدّت بها المآكل الشهية وأرسلت مفاتيحها إلى
المعتضد..
دخلها..
هاله ما رأى..

زاد فيها وجعل لها سوراً حولها..
كانت قدر مدينة شيراز..

إلى الأهواز..
يحمل الحلاج أشواقه وحنينه..
ومعه..
شائعات تطارده..
وخصومات فُتحت عليه..

قال..
إن الخلافة حق لكل مسلم صالح يقيم العدل..
فغضب من رأى الخلافة لأهل البيت.. حقّاً..
قالوا..
رجل يسعى إلى السلطة ويطمع في الحُكم..

تأمل دولة بني العباس..
طلبوا الحكم لقرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلّم وانتسابهم إليه.. تحالفوا مع الشيعة.. ضد بني أمية.. فلما وصلوا الحكم.. استأثروا به لأنفسهم وتنكّروا لحلفاء الأمس..
قهروا وبطشوا وظلموا..
لكثرة ما قتل.. لُقّب أول خلفائهم بالسفّاح..

تأمّل دولة بني العباس..
أنكر حقهم في الخلافة وقال.. الخلافة حق لكل مسلم صالح يقيم العدل..

غضب عليه أهل التصوف..
خلع خرقتهم وتعاليمهم..
قالوا مشعوذ دجّال..
يدّعي معرفة السرائر..

دخل الحلاّج.. شاباً على عمرو المكي شيخ الصوفية..
سأله عمرو: الفتى.. من أين؟
أجاب .. لو كانت رؤيتك بالله لرأيت كل شيء مكانه..
فإن الله تعالى يرى كل شيء..
المؤمن ينظر بنور الله..
خرج إلى الدنيا.. يخالط أهلها..
تجّار وصنّاع..
كتبة وعمّال خراج..
يجالسهم ويتحدّث إليهم..

قالوا..
تخالطُ أهل الدنيا..
قال..
أقول كما قال المسيح..
«حيث يكون المرضى يوجد الطبيب»..

الذكر والأوراد والعزلة.. ليست غاية..
يُطلب الدواء لشفاء المريض..

إذا صلُحت النفس وتطهّرت.. يخرج صاحبها إلى
الدنيا ينشر فيها الصَلاح..
الدنيا.. مطيّةُ الآخرة..
ألم يشكو رجل إلى رسول الله قسوة قلبه..
قال له:.
امسح رأس اليتيم وأطعم المسكين..

خالف عُلماء الظاهر..
يأخذون بظاهر النص وينكرون إشاراته وتأويله..

قال..
ألم يقل ابن عباس رضي الله عنه يوم سُئل عن..
«فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا»
أجاب..
هذه إشارة لقرب وفاة الرسول والتحاقه بالرفيق الأعلى..

افترق الحلاّج عن علماء الظاهر يوم افترق العبد
الصالح الذي «آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا
عِلْمًا».. عن موسى عليه السلام..

أراد موسى أن يتبع العبد الصالح.. يتعلّم منه..
قال له العبد الصالح..
إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا..

وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا..

مشيا..

رأى موسى من فعل العبد الصالح عجبا..
خرق سفينة وقتل غُلاماً..
دخلا قرية.. طلبا من أهلها الطعام..
فأبى أهل القرية أن يطعموهما..
أصلح لهم العبد الصالح جداراً يكاد أن ينهدم
فاستنكر موسى..
أجاب العبد الصالح..
«هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا»..

«أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا»..

«وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا»..
«وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ»..

وكان «فراق بيني وبينك» فراقاً أبدياً..

وأما السُلطة..
فقد فتحت عينيها على الحلاّج.. تتربّص به..

عزف الحلاّج عن المخاصمات وقال لأحد مريديه..
إن بعض الناس يشهدون عليّ بالكفر..
وبعضهم يشهدون ليّ بالولاية..
والذين يشهدون عليّ بالكفر أحبُّ إليّ وإلى الله
من الذين يقرّون لي بالولاية..
سأل مريده..
ولم ذلك..؟
لأن الذين يشهدون لي بالولاية من حُسنٍ ظنهم
بي.. والذين يشهدون عليّ بالكفر تعصباً لدينهم
.. ومن تعصّب لدينه أحبُّ إلى الله ممن أحسن
الظن بأحد..

استمر في مواعظه..
تفتح أبواب صراع لا ينتهي..
كثر أتباعه ومريديه..
دعوته..
الإصلاح.. العدل.. العودة بالإسلام إلى فطرته الأولى..

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين ومائتين..
فيها..
وصلت قطرُ الندى.. ابنة خمارويه.. سلطان الديار المصرية إلى بغداد..
أرسلها أبوها إلى المعتضد..
معها من الجهاز شيء كثير..
معها مائة هاون من ذهب.. غير الفضّة..
قماش وغير ذلك مما لا يُحصى..
أرسل معها أبوها مائة ألف دينار وخمسين ألف..
لتشتري من العراق ما قد تحتاج إليه مما ليس في مصر مثله..
وفي هذه السنة..
غلت الأسعار جداً وجهد الناس.. حتى أكل بعضهم بعضاً..

ويحجُ..

هاجه الشوق إلى مكة..
اقترب موسم الحج..
أحسن خِواء الوجد..
قرّر الحلّاج أن يخرج في تظاهرة كبيرة في أربعمائة من أتباعه.. إلى الله.. إلى مكة.. حاجّاً مع أصحابه..
طاف بالبيت..
سعى بين الصفا والمروة..
وقف على عرفات.. يدعو..

يوم النحر..
نحر.. كأنما ينحر نفسه..
عاد كيوم ولدته أمه.. بريئاً.. طاهراً..

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين ومائتين..
فيها..
دخل المعتضد بزوجته قطر الندى..

وفي ذي الحجة..
قُتل خمارويه..
وثبتَ عليه خدّامة وذبحته في فراشه..
تولّى بعد ابنه.. حنش..
قُتل ونهبت داره..
تولّى بعده هارون بن خمارويه.. فالتزم أن يحمل إلى الخليفة ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار كل سنة..
باع المعتضد دم صهره.. خمارويه.. وأقره على ذلك

كاتَبَ الحلاّج أهل السلطة في بغداد.. مركز الخلافة..

دعاهم إلى دعوته..
الصلاح لا يكون بإصلاح الفرد..
النجوم المتفرّقة لا تصنع نهارا..
يبقى الليل.. ليلا..

الصلاح بإصلاح المجتمع..
إقامة العدل الذي هو أساس الملك ..

التصوّف..
خطوات داخل النفس..
وخطوات خارجها.. إلى الناس والحياة..
كيف يكون المؤمن جالساً مع نفسه.. سعيداً
بأذكاره وتأمله والناس.. حوله جياع.. مظلومين
.. محرومين..
والله لا يؤمن من بات شبعاناً وجارُه جائع..

طريقنا طريق أبي ذر الغفاري..
أبى أن ينحرف الإسلام إلى الأغنياء..
حمل الكتاب وحيداً..
ودعا إلى العدل.. وحيداً..
نُفِي وحيداً.. مات وحيداً في أرض الغرباء..
يُبعث.. تكريما.. يوم الحشر وحيدا..
هذا سيّدٌ من العُبّاد الصادقين..

كيف يعتزل رجل بين جدرانه والطوفان قادم..
كيف يكون من المسلمين من لا يهتم بأمرهم..

كتب إلى أهل السلطة يدعوهم أن يعملوا بما أمر الله..
أن لا يُلقوا بأنفسهم إلى التهلكة.. طلباً للدنيا ومتاعِها..
كتب إليه بعضهم..
استجابوا لدعوته..

منهم.. معاونين لوزير الدولة عبيد الله بن سليمان بن وهب.. ومنهم حمد القِنائي الرجل النافذ في بلاط الخليفة..

دعوه إلى الإقامة في بغداد..
استجاب إليهم وإليها.. رحل..

بغداد..

فسد فيها مترفوها فحق عليها القول..
عروس.. تزينت.. ولم تكتمل زينتها بالعدل..

بغداد..
بين كفيها جمعت ثراء العالم..
قوافل الشرق ترحل إليها بالحرير..
منها.. تحمل العطر والبخور.. غرباً..

فاحش.. ثراء أثريائها..
فاحش.. فقر فقراءها..

بحر من مذاهب وأفكار وأديان..
نار من صراعات.. تلتهب..

نسيج تتشابك خيوطه.. تتنافر ألوانه.. علماء وفقهاء
ومتصوفة.. زنادقة وملاحدة ودهريين..

صور مقلوبة..
سيدات القصور.. جواري..
قادة العسكر.. خصيان.. متجبرون طغاة..
الناس مستضعفون مقهورون..
النار تحت الرماد.. تكاد تشتعل..

إلى بغداد.. يصل الحلاج..
يحمل دعوته إلى العدل..
صوته يسبقه.. يصرخ..
أعيدوا الإسلام إلى فطرته الأولى..

في حي التستريين..
على الجانب الغربي من دجلة المبارك.. سكنَ وأهله
وأتباعه.. جاور مقابر الشهداء من صحابة رسول الله..
وقبر أحمد بن حنبل.. المجاهد الصامد في وجه الخلافة
العباسية.. سبعة عشر عاماً.. عُذّب وسُجن وجُلد.. و..
قال الحق..

القبور..
مساكن أبدية لمن مضى ورحل..
ممزوج ترابها بأحلامهم وأمانيهم..

الموت..
سهم إنطلق من قوسه..
ينال هدفه في أجل محتوم..
لحظة قادمة..
يفارق المرء صاحبته وأخيه..
ليس له شأن يغنيه..
يترك من أحب وما أحب..

تستل الملائكة نفسه من بين جنبيه..
تلتف الساق على الساق..
يومئذ..
إلى ربك المساق..

العيون تنظر.. ولا حول ولا قوة..
الأنفاس تخمد.. ولا حول ولا قوة..
ترحل.. ولا حول ولا قوة..
حبيبك.. يهيل عليك التراب..
يومئذ..
يا ليتني عملت صالحاً..

يسكن القلب والجسد..
لا ذكر.. لا صلاة.. لا قيام..
لا سعي في طاعة..

ينتظر الحلاج سدول الليل.. سكونه.. بين المقابر..
يتعبد.. يذكر النهاية..
إلى الله.. يتقرب.. باكيا..

يروي صاحبه..
خرجت في ليلة مقمرة إلى قبر أحمد بن حنبل رحمه الله.. فرأيت.. رجلاً قائماً مستقبلاً القبلة..

دنوت منه فإذا هو الحسين بن منصور.. الحلاج..
وهو يبكي ويقول..
«يا من أسكرني بحبه..
وحيرني في ميادين قُربه..
أنت المنفرد بالقِدم..
المتوحد بالقيام على مقعد الصدق..
قيامك بالعدل لا بالاعتدال..
بُعدك بالعزل لا بالاعتزال..
حضورك بالعلم لا بالانتقال..
غيبتك بالاحتجاب لا بالإرتحال..
لا شيء فوقك فيظلّك..
ولا شيء تحتك فيُقلّك..
لا أمامك شيء فيحدّك..
لا وراءك شيء فيدركُك..
أسألك بحرمة هذه التُرب المقبولة والمراتب
المسؤولة، أن لا تردني إليّ بعد ما اختطفتني مني،
ولا ترني نفسي بعد ما حجبتها عني..»

يرتقي الحلاج في معارج الروح..
إلى الله يتقرب..
يذوب قلبه.. حباً وعشقاً وقُرباً..

لا يرى غير الله..
يخرج إلى الساحات..
إلى الناس..
يدعو إلى الواحد الأحد..
كل شيء هالك.. إلا وجهه..

إلى أهل الدنيا.. يجتمع..
وزراء وعمال خراج وكتَبة..
رجال من أهل القصر.. يدعوهم إلى الواحد الأحد..
إلى تقويم الخلافة..
إلى إقامة العدل..

إقرأ القرآن كأنما عليك أنزل..
الأمر لك.. لك وحدك..
العبء عليك.. عليك وحدك..
يقرأ الكتاب..
يا أيها المدّثر قم فأنذر..

ينفض غبار الليل عنه ويبحث عن فجر جديد..
هذا واجبه.. واجبه وحده..
يخشى أن يُسأل يوم العرض..
يسأل عن عمره فيما أفناه.. عن علمه ما فعل به..
يوم تذهل كل مرضعةٍ عما أرضعت..

ينهض..
ينسج شبكة من رجال نافذين من أهل السلطة..
آمنوا بما آمن..
حمد القنائي..
خبير بشؤون الدولة وحال الخلافة..
عامل خراج، وكاتب دولة..
عائلته متنفذه.. تولى أبناؤها الخراج والوزارة..
كاتبه الحلاج.. أجاب واستجاب..
دعاه إلى بغداد وفيها رعاة..
ومنهم..
وإلى الأهواز.. محمد بن سعيد الكرنبائي..
وأبو عماره الهاشمي.. شريف آل هاشم في البصرة..
أتباعه كثر..
وله صوت مسموع..

تقرب الحلاج من الشيعة..
خاطبهم بكلامهم وأفكارهم..
هم.. بنية الدولة وأغلب العاملين فيها..

الجُنيد..

فقدان الحبيب.. ظمأ لا يُروي..
يُسافر بلا عودة..
القلب جناح طير.. يرف..
اللوعة.. شرنقة.. تلفُ المكلوم..

الجنيد.. شيخ الصوفيه وعلمها..
له إبنة وولد في الثانية عشرة..
طائر صغيرٍ.. بلا أجنحة..
إرتكب خطأً فعوقب..
والدولة العباسية.. لا تعرف الرحمة في رعاياها..
كان عقابه الموت.. قطعاً للرأس..
سكن الحزن قلب الجنيد.. والرهبة..
عاش والفقدان.. عُمره..
والحزن يأكل الكبد..

شيخ جليل..
تكلم في التصوف..
في الأحوال والمقامات..
في الشرع وأحكامه..
لكن جدار الرهبة حجبه عن السياسة..
جاءه الحلاج شاباً صغيراً.. إلى مجلسه..
أحس الشيخ النار في قلب مريده.. تشتعل..
فرأى نهايته.. قتيلاً مصلوباً على خشبة..

إلتفت المريد إلى شيخه بعد درسه..
سأله..
ما الذي يصدُّ الخلق عن رسوم الطبيعة..
قال الجنيد..
أرى في كلامك فضولاً.. أي خشبة تفسدها..
خرج الحلاج.. باكياً..
إلى المقابر.. حيث جلس..

دار الزمان..

عاد الحلاج إلى بغداد..
رجلاً له مقام صدق..
أتباعاً ومريدين..
سبقته شهرته ودعوته.. كلامه في الخلافة وإصلاح ما فسد..
حاول الاتصال بالجنيد.. من جديد..

حضر مجلسه..
أدرك أن الرهبة في قلب الجنيد.. ما زالت..
وأنه توجه إلى العلم والتأليف والتدريس..
بعيداً عن شؤون الدنيا والدولة..
عرف أن الجنيد كباقي المتصوفة أو.. جلّهم..
يستنكرون دعوته..

يبتعدون عنها..
يلومونه على اختلاطه بأهل الدنيا.. كما يسمونهم..
أو.. أهل الحُكم والسلطةُ..

وكان هذا آخر عهده بالجنيد..
الذي عاش صامتاً..
وكذلك مات..

يتبعونه..

الشبلي..
أمير من الترك..
نافذ في بلاط الخليفة..
أحب الحلاج قبل أن يراه..
ذهب إليه..
سمع خطبه ومواعظه..
جالسه وسأله..
كيف الطريق إلى الله تعالى..
أجابه..
خطوتين وقد وصلت..
إضرب بالدنيا وجه عشّاقها..
وسلّم الآخرة إلى أربابها..

خشع الشبلي..
عرف..
الطريق إلى الله..
زهدٌ في الدنيا.. زهدٌ في الآخرة..

سأله عن التوحيد..
أجاب..
إن الله تبارك وتعالى وله الحمد واحد قائم بنفسه..
منفرد عن غيره بِقدَمه..
متوحّد عمن سواه بربوبيته..

لا يمازجه شيء.. لا يخالطه غيرٌ..
لا يحويه مكان.. لا يدركه زمان..
لا تصوّره خَطره ولا تدركه نظرة ولا تعتريه فترة..
ثم قال..
صن قلبك عن فكره ولسانك عن ذكره..
استعملهما بإدامة شُكره..
إن الفكرة في ذاته والخطره في صفاته والنطق في إثباته
من الذنب العظيم والتكبّر الكبير..

دُهش الشبلي..
أين التوحيد إن لم يكن هذا..
تبع الحلاج مُتعلماً ومُحباً وصديقاً..

أسس الحلاّج لنفسه مدرسة جديدة..
تربط بين قيام الليل وعمل النهار..
بين الخلوة والعمل..
الذكر بالسر والجهر بالحق..
انفَضّ عنه الصوفية لطموح في نفسه.. يقولون..
وخشيتهُ السلطة لأنه ينادي بصوت السماء..

عام..
ضربت جذور دعوته في الأرض..
ولكن..
صوت يناديه دائماً إلى الرحيل..
النسر يحلق عالياً..
يضرب في الآفاق..
يطير من أفق إلى أفق..
العالم.. أرض واحدة..
لا حدود ولا سدود..
في الأفق..
يسكن الحُلم..
إلى الحلم يطير النسر..
محلقاً بكبرياء و.. عنفوان..

رحمة للعالمين..

يقرر الحلاج الرحيل..

يؤمن إن العالم أرض دعوته..
لا يوحّد الإنسان إلا الحب والرحمة..
يضرب في الأرض البعيدة.. إلى الهند.. شرقاً..
يحمل دعوة رسول الله..
«إنما بعثت رحمةً للعالمين»

يدعو الناس والأمراء والحكام..
يبشر بالرحمة للناس كافة..
علّهم يكونون نواة دولة الإسلام الكبرى..

حُلّمه الذي يناديه دائماً..
جناح به يطير..
إلى خراسان وتركستان..
أقام في عاصمة الترك..
التقى بأمراء المناطق وبشّرهم بدعوته..

عاد عبر خراسان ومرّ بنيسابور ونهاوند..
قبل أن يعود إلى بغداد..
يحمل في قلبه الذكريات..
يكاتب أمراء تلك البلاد ويكاتبونه..

يؤلف لهم الكتب والرسائل..
ويبشرهم بيوم العدل القادم..

في ظلال البيت..

لا إله إلا الله..
من قالها يشهد لله عزّ وجل بالألوهية والوحدانية
جانب الصواب..
فلا يشهد الفاني للباقي.. الحي الذي لا يموت..
لا يشهد المخلوق لخالقه..
ومن قالها ليشهد لنفسه بالإيمان بالله وحده لا إله إلا
هو .. فقد عرف..
ومن عرف استنار..
ومن استنار خشع..

لا حول ولا قوة إلا بالله..
لا معنى لها إلا أن الحول والقوة لله وحده..

في تفسير بسم الله..
قال الحلاج..
بسم الله منك.. بمنزلة.. كن.. منه..
فإذا آمنت أحسنت أن تقول.. بسم الله..
تتحققُ الأشياء بقولك.. بسم الله..
كما تتحقق بقوله.. كن..
وبها.. بسم الله.. نستعين..

في بغداد.. أقام الحلاج..
لم يطل به المقام..

صوت إبراهيم يؤذّن في الناس بالحج فيلبّي نداء الله في صوت إبراهيم..

لبيك.. لبيك يا سرّي ونجوائي
لبيك.. لبيك.. يا قصدي وَمَعْنائي
أدعوك.. بل أنت تدعوني إليك فهل
ناديت إيّاك أم ناديت إيائي
إن كنت بالغيب عن عيني مُحتجباً
فالقلب يرعاك في الأبعاد والنائي

في ظل الكعبة..
يجاور عامين..
يتأمّل..
يغسل روحه بماء زمزم..
يتطهّر..
الزهد..
خطوة مشيتها..
عَقبةٌ عبرتُها..
لو أقبلت الدنيا عليّ.. تتزيّن..
لما التفت إليها..
الآخرة..
لو تبرّجت..
لما مشيت إليها..

إلى الحبيب أسعى..
حتى أكون قاب قوسين أو.. أدنى..
علّ الحبيب يرضى..
فيجود بالوصال..

المؤمن..
إذا ماتت شروره نفسه..
فإلى الله..
وبالله..
يريد ما يريد المحبوب..
يقول ما يقول المحبوب..
إرادتان في إرادة..
فلا أنا.. بل أنت..
لا أريد بل.. تُريد..
ما أنا بعد أن تلاشت نفسي والأماني..
إلا..
صوت الحق..
وما أنا إلا.. الحق..

وقف على عرفات يدعو..
«إلهي إني أنزهك عما يفعله عبادك ليتقربوا إليك..
وما يقوله موحّدوك لكي يوحدوك، وأنزهك عن تسابيح
من يقول سبحانك وتهليل من يقول لا إله إلا الله، وعما

يقوله فيك أولياؤك وأعداؤك جميعاً.. إلهي أوقفتهم في مواقف العجز ثم طالبتهم بتكاليف المقدرة.. إلهي أنت تعلم عجزي عن مواضع شكرك فاشكر نفسك عني فإنه الشكر لا غير..»

أوان الرحيل.. حان..
يودّع مكة الوداع.. الأخير..
إلى القدس..
معراج السماء..
يدنو ويتدلّى..
قبل أن يعود إلى بغداد..
أرض الصراع..
لتبدأ القصة أو..
تنتهي بدمٍ يقطر إلى يوم الدين..

إلى الوطن..

الأشواق تذوب كلمات تطلبُ الوصال..
الحُبّ ينساب.. شعراً..

يا نسيم الصبح قولي للرشا
لم يزدني الوردُ إلا عطشا
لي حبيبٌ حُبُّه وسط الحشا
إن يشا يمشي على خدّي مشى
روحه روحي وروحي روحه
إن يشا شئت وإن شئت يشا

في نشوة الحُب ينسى المُحبّ من يكون.. ومن يكون الحبيب..

أنا من أهوى ومن أهوى أنا
نحنُ روحان حلَلنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرته
وإذا أبصرته أبصرتنا..

وتغمر المحب الأشواق..
يصرخ..
ألماً..

كفى حُزناً أن أُناديك دائباً
كأنِي بعيد أو كأنك غائب
وأطلب منك الفضلَ من غير رغبةٍ
فلم أرَ قبلي زاهداً وهو راغب

ثم دخلت سنة اثنتين وتسعين ومائتين.. وفيها..

وصل الحلاّج إلى بغداد..
عمّر داراً.. يسكنها..
يقول له ولده.. أحمد..
تغيّرت يا أبي.. تُعمّر داراً في دار الفَنَاء..
يجيب..
يا ولدي..
أعود إلى الدنيا من.. الآخرة.. مُصلحاً..

العشق والفتنة..

مع عِطر الفجر أزهر شعر الحلاّج وفاح..
غناه المتصوّفة والعاشقون..
سمعه ابن داود..
ردّد..
أن يشا يمشي على خدي مشى..
روحه روحي.. روحي روحه..
أليس هذا تجسيداً واتحاداً وخروجاً على الشريعة
.. صريحا..
هذا رجل يُهدَر دمُه..

سعى به عند الخليفة المعتضد..
فكّر قبل أن يتكلم..
تهمة الكفر تحتاج دليلاً..
صمت لحظة وقال..
الحلاّج هذا رجل قاصٌّ.. يروي الخُرافات والأكاذيب
في المساجد.. ومثله كثيرون.. أصدر المعتضد مرسوماً
يحظر القصاصين ويلاحقهم..

محمد بن داود..
فقيه ظاهري..
والظاهرية مدرسة تأخذ بظاهر النص ولا تؤمن
بالتأويل..

يروي الرويم..

كنا عند داود بن علي إذ دخل عليه ولده محمد..
وهو طفل صغير.. باكياً..
فضمّه إليه وسأله: ما يبكيك؟
قال.. الصبيان يلقبوني..
فقال.. فعلى أي شيٍ حتى أنهاهم؟
قال.. يقولون لي شيئاً..
قال.. قل لي ما هو حتى أنهاهم عن الذين يقولون..
قال.. يقولون لي يا عصفور الشوك..
فضحك داود..
قال ابنه.. أنت أشد عليّ من الصبيان.. مم تضحك..
قال داود.. ما الألقاب إلا من السماء ما أنت يا بني
إلا عصفور الشوك..

نشأ الفتى عصفورا.. مخنّثا..
أحب رجلاً اسمه محمد بن جامع الصيدلاني.. وله ألف
كتاب «الزهرة».. كتاب في الحب.. أبوابه مائة.. كل باب
حمل عنوانا من مَثل عربي..
من مُنع النظر استأنس بالأثر..
من غاب قرينه.. كثر حنينه..
ما خُلق الفراق إلا لتعذيب العشّاق..
من وفى له الحبيب.. هان عليه الرقيب..

الحلاّج يصرخ في السوق..
«أيها الناس..
إذا استولى الحق على قلب أخلاه عن غيره..
إذا لازم أحداً أفتاه عمن سواه..
إذا أحب عبداً حثّ عباده بالعداوة عليه حتى
يتقرّب العبدُ مقبلاً عليه..
فكيف لي ولم أجد من الله شمّة.. ولا قربا منه
لمحة.. والناس يعادونني..»

دخل محمد بن جامع الصيدلاني.. محبوب ابن داود..
الحمّام..
أصلح من وجهه..
أخذ المرآة ونظر..
غطّا وجهه وركب إلى ابن داوود..
خاف عليه ابن داوود أن يكون لحقته آفة ذهبت بجماله..
سأله بلهفة.. ما الخبر..
أجاب ابن جامع..
رأيت وجهي الساعة في المرآة فغطيته وأحببت أن لا يراه أحد قبلك..
كشف وجهه..
سقط ابن داود مغشياً عليه.. عشقاً..
بعد ذلك قال..

كنت مشغولاً بحسن الصورة..
وقال لابن جامع..
بعد أن نظرت إلى وجهك قبلي فإنك لا تصلُح لي..
ولا أريد من يشاطرني الحُب..
يقول ابن داود واعظاً في المسجد..
وسبب غشياني كان غيرة مرعبة..
وهكذا يجب أن تكون حال المؤمن مع ربّه..

الحلاّج في سوق بغداد.. يصيح..
يا أهل الإسلام أغيثوني..
ليس يتركني ونفسي فآنسُ بها..
وليس يأخذني من نفسي فأستريح منها..
وهذا دلال لا أطيقه..
أقلب قلبي في سواك فلا أرى
سوى وحشتي منه وأنت به أُنسي
فها أنا في حبس الحياة مُمنّع
عن الأنس.. فاقبضني إليك من الحبس

محمد بن داود..
قصد كبير القضاة في بغداد.. الغربية..
يتهم الحلاج بالكفر ويطلب محاكمته..
تهمة عقابها.. القتل..

ابن سُريج..
معاون كبير القضاة..
من أقطاب الشافعية في بغداد..
مُحبٌ للحلاج.. معجب به..
في جامع الرصافة..
دارت بين الثلاثة حوارات..
هجوم ودفاع..

قال ابن داود..
هل سمعتم شعر الحلاج..
أجاب ابن سريج..
ومن لم يسمعه..
قاطعه ابن داود..
رجل مُشرك.. يؤمن بالحلول والاتحاد..
محاكمتُه حمايةٌ للشريعة وحفظاً للدين..
صمت ابن سُريج لحظات.. يستمع..
ثم قال..
يقول الحلاج..
«إن الله تبارك وتعالى وله الحمد ذات واحد قائم بنفسه،

منفرد عن غيره بقدمه، متوحّد عمن سواه بربوبيته،لا يمازجُهُ شيء، ولا يخالطه غير، ولا يحويه مكان ولايدركه زمان، ولا تقدّره فكرة، ولا تصوّره خطرة، ولا تدركه نظرة ولا تعتريه فترة..»

كيف يؤمن رجل مثل هذا بحلول أو إتحاد..

ردّ ابن داود..

لكنه يقول في شعرِه..

حويت بكلي كلّ كُلّكَ يا قدسي
تكاشفني حتى كأنّك في نفسي

يجيب ابن سريج..

ويقول في نثره.. «من ظنّ أن الإلهية تمتزج بالبشرية أو البشرية تمتزج بالإلهية فقد كفر. فإن الله تعالى تفرّد بذاته وصفاته عن ذوات الخلق وصفاتهم، فلا يشبههم بشيءٍ من الأشياء، وكيف يتصور الشبه بين القديم والمحدَثْ، ومن زعم أن البارئ في مكان أو على مكان أو متصل بمكان أو يُتَصور على الضمير أو يُتَخايل في الأوهام أو يدخل تحت الصفة والنعت فقد أشرك»

هذا رجل عاشق يا ابن داود

ردّ ابن داود..

العشق يكون لجمال صورةٍ، ومن ادّعى حباً لله فهو تجسيد يؤدي إلى التشبيه وتخيُّل ألوهية مادية.. وأكمل..

العشق جهلٌ يُصيب قلباً فارغاً لا شُغلَ له من تجارةٍ أو صناعة..

قاطعه ابن سريج..
هذا رجل حجّ ثلاثاً.. واعتمر..
جاور البيت سنيناً..
صام نهارها..
قام ليلها..
لا تُلهيه تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكرِ الله..
وبالله قلبه انشغل..
حافظٌ للقرآن، عالمٌ به، ماهرٌ في الفقه، عالمٌ بالحديث والأخبار والسنن، صائم الدهر، قائم الليل يعظ ويبكي، ويتكلم بكلام لا أفهمه، فلا أحكمُ بكفره..
أما حبُّهُ لله فأمرٌ يتعلق بالسرائر ففيها الحبُّ وسرُّه..

لم يدرِ ابن داود ما يقول..

الفراشة..

الحلاج يرتعش عشقاً..
اللوعة في قلبه..
يمشي في شوارع بغداد.. يصرخ..
أيها الناس أغيثوني عن الله.. فإنه اختطفني مني..
وليس يردّني عليّ لا أطيق مراعاة تلك الحضرة وأخاف
الهجران فأكون غائباً محروماً..
الويل.. الويل لمن يغيب بعد الحضور ويُهجر بعد الوصل..
تلاشى جسمي في أنوار ذاته..
لا عين لي ولا أثر..
ولا وجه ولا.. خبر..

يبكي..
ويبكي الناس لبكائه..

الحب عذاب وغُربة..
يضني قلبه الفراق..
لا يجد للّقاء سبيلا..
تاهت بالمُحبّ السبل..
يمشي.. لا يصل..
يعانق.. يبتعد..
يشرب.. لا يرتوي..
الحب.. عذاب وغُربة..
يدنو الحبيب..

إلى السماء يطير.. مُحلّقاً..
يبتعد الحبيب..
يهوي إلى الأرض.. مُرتطماً..

يقترب..
يسكن العقل و.. القلب..
لا يرى في الناس أحدا..

يبتعد..
يتيه العقل والقلب ..
لا يرى في الناس آحدا..
يعيش مع ذكرى الحبيب ولحظة الوصال..

مع ألم الفراق.. يعيش..
في انتظار اللقاء.. يعيش..

يقترب من الحبيب.. يتلاشى..
ينسى من يكون ومن يكون.. الحبيب..

الفُراق..
يتيه في الصحراء.. عطشاً..
يتساءل..
أَحُبٌّ حبيبه وهمٌ أم.. حقيقة..
وبين الوهم والحقيقة..
لا جواب..
يصرخ في المسجد..
«لو ألقي مما في قلبي ذرة على جبال الأرض لذابت..
وإني لو كنت يوم القيامة في النار.. لأحرقت النار..»
يصرخ..
أيها الناس..
إن الله أباح لكم دمي فاقتلوني..
تؤجروا وأستريح..
يبكي..
ويبكي الناس لبكائه..

روى صاحبٌ للحلاّج اسمه جُندب..
دخل علي في نصف الليلِ ببغداد بهرام بن مرزبان المجوسي.. كان رجلاً ثرياً ومعه كيس فيه ألفا دينار..
قال لي..
تذهب معي إلى الحلاّج.. لعله يحتشمك.. فتعطيه هذا الكيس..
ذهبت معه.. دخلنا عليه..
كان قاعداً على سجادته يقرأ القرآن..
أجلسنا وقال..
ما الحاجة في هذا الوقت..
فتكلمت في ذلك فأبى أن يقبل المال.. فألححت عليه..
وكان يُحبني.. فقبل وقال.. لا تخرج..
فوقفت.. وذهب المجوسي..
فخرج الحلاّج معي.. حتى دخلنا جامع المنصور.. ومعه الكيس.. والفقراء نيام.. فأيقظهم وفرّق الدنانير عليهم حتى لم يبق في الكيس شيء..
قلت..
يا شيخ.. هلاّ صبرت إلى الغد..
قال..
الفقير إذا بات بين العقارب خير له من أن يبيت مع المعلوم..

دينٌ مضيّع..
عدلٌ مفقود..
الخليفة.. المكتفي.. يكتب الشعر في «عبد» له..
من لي بأن أعلمَ ما ألقي
فَتَعرِفَ مني الصبابه والعشقا
ما زال لي عبداً وحبي له
صيّرني عبداً له رِقّا
العتق من شأني ولكنني
من حُبّهِ لا أملك العِتقا

الحلاج تؤرقه الحال..
القصور المتطاولة في البنيان..
الفقراء.. أحلامهم تحت الأرض..
الإقطاع يمتد من الأفق إلى.. الأفق..
الفلاحون.. أرقّاء..
أولادهم.. أرقّاء المستقبل..
أيدٍ تطفح بالمال..
وأفواه تبحث عن لقمةِ عيش..

تؤرّقه الحال..
لا بد من إنزال العدل عن صليبه..
توزيع الثروة بين الناس..

الأرض لِمَن يُحييها..
فتحُ أبوابِ بيت مال الخاصة.. للعامة..
الخلافةُ لِمَن يستحقّها..

يكتب الحلاّج الكتب والرسائل لأصحابه.. من أهل الحكم.. وزراء وقضاة وولاة وعسكر.. في بغداد والأمصار..
كلماته تشعُّ من قلبه..
تلامس قلوبهم..
يؤمنون بما يؤمن.. يعقدون العزم على.. التغيير..

خصم ليس كالخصوم..
فكّر ابن داود..
هو كاتب.. شاعر.. عالم.. فقيه..
اتصل بعلماء الإسلام وحاورهم..
عرف المدارس والمذاهب..
نما في غفلةٍ من الدولة..
تبعه أمراء وولاة ورجال حُكم..
والفقراء المسحوقون سيلبّون دعوته لو ثار من أجلهم..
والأرض تنتظر والسلطة خائفة..
فكّر ابن داود..
ما يوقظ السلطةَ النائمة.. خوف دفين..
سأقنع الخلافة أن الحلاج عميلٍ قُرمطي.. يتخفّى
تحت جُبّة الصوفية.. دعوته ثورةٌ اجتماعية سياسية..
على طريقة الزنج أو.. القرامطة..

هذه تهمة تقتل الحلاج..

عن عبد الله بن طاهر الأزدي.. قال..
كنت أخاصم يهودياً في سوق بغداد وجرى على لفظي أن قلت له.. يا كلب..
مرّ بي الحسين بن منصور.. الحلاّج.. فنظر إلي شزراً.. وقال..
لا تتبَح كلبَك..
وذهب سريعاً..

فلما فرغت من المخاصمة.. قصدته ودخلت عليه..
أعرض عني بوجهه..
اعتذرت إليه حتى رضي..
قال..
يا بُني.. الأديان كلها لله عزّ وجل.. شَغَلَ بكل دينٍ طائفة لا اختياراً فيهم بل اختياراً عليهم.. فمن لام أحداً ببطلان ما هو عليه فقد حكم أنه اختار ذلك لنفسه..
واعلم أن اليهودية والنصرانية والإسلام وغير ذلك من الأديان هي ألقابٌ مختلفة وأسامٍ متغايرة.. والمقصود منها لا يتغير ولا يختلف..

يقول ابن داود..
«إن كان ما أنزل الله تعالى على نبيه عليه السلام حق، وما جاء به حق، فما يقول الحلاج باطل..»

عيدٌ بأية حال..

ويدخل العيد.. بعد صيام..
السماء تردد..
الله أكبر.. الله أكبر..
لا إله إلا الله..

إلى المُصلّى وصل الحلاّج..
المصلون يكبّرون..
الفقراءُ خارج الساحة..
الأرامل..
اليتامى..
الجياع..
ينتظرون بعض الطعام..
زكاة الفطر.. بِراً وتطهيراً..
تأمل الوجوه..
الجوع يأكل أجساد الفقراء ويترك الجلد والعظم..

الخيرُ..
ينبت في الأرض..
ينزل من السماء..
الدولة..
تمتد من الشمس إلى الشمس..
جمعت بين كفيها خيرات الدنيا والجياع في الطرقات..
لماذا يُفسد الإنسان ما أصلح الله..

ألم يكفِ الخليفةَ ما جمع من أموال المسلمين والذميين..
خزائن الوزراء تمتلئ وتفيض.. كدجلة بعد المطر..
إلى متى..
إلى متى يا رب..

الأمُّ.. فقدت زوجها في الثغور يحارب في أرض بعيدة..
وصلت إليها السحابة وأمطرت..
وإلينا.. عاد خراجها..
اليتامى .. فقدوا أباً في حرب حرّمها الله..
حول أمهم يلتفّون..
لعل المعطي يزيد في عطائه.. شفقة ورحمة..
الإمام.. يدعو للخليفة بطول البقاء..
المصلّون يكبّرون..
اللهم إنها ليست وثنية..
ألم يقل رسولك..
جعلت لي الأرض مسجداً وطهورا..
الأرض مسجد..
فعل الخير فيها.. صلاة..
المسحُ على رأس اليتيم.. صلاة..
رفع الظلم عن المظلوم.. عبادة..
اللهم اغفر لي عجزي..
اللهم اغفر لي إن رأيت مظلوماً فلم أنصره..
أيحق لي أن أبتسم وعلى الأرض عين دامعة..

مشى الشيخ..
حزيناً جليلاً..
تلفّتوا إليه..
حزيناً.. جليلاً..
يلبسون ألوان الحبور.. زاهية..
يلبس السواد.. كل السواد..
وفجأة..
يقف أمامهم..
يمسك بطرف قميصه..
صوته يتكسّر.. حُزنا..
يصرخ..
هذه ثيابُ من يردُّ عمله عليه..

يُروى..
أن الحلاّج كان يصوم رمضان ويخرج يوم العيد..
يلبس السواد.. ويقول.. هذه ثياب من يردُّ عمله عليه..

الخليفة.. الصبي..

ثم دخلت سنة خمس وتسعين ومائتين..
وفيها..
توفي الخليفة العباسي المكتفي بالله..
كان ربْعةً من الرجال.. جميلاً.. كما يصفون..
رقيقَ اللون.. حسنَ الشَعر.. يقولُ الشعر..

لمّا حضرته الوفاة سأل عن أخيه.. جعفر بن المعتضد..
صح عنده أنه بالغ.. يقولون..
أحضر القضاة وأشهدهم بأنه قد فوّض الخلافة إليه من بعده..
توفي بعد ثلاثة أيام.. بِدَاءِ الخنازير..

تولى جعفر المعتضد ولُقّب بالمقتدر بالله.. كان الخليفة الثامن عشر في الدول العباسية.. جُدّدت له البيعة بعد وفاة أخيه.. وقت السَحر.. وعُمره إذ ذاك ثلاث عشرة سنة وشهر واحد وأحد وعشرون يوماً ولم يلِ الخلافة أحد قبله أصغر منه..

يقولون بالغ عاقل.. راشد..

يوم تولّى.. كان في بيت مال الخاصة.. خمسة عشر ألف ألف دينار..
في بيت مال العامة ستمائة ألف دينار لا غير..

الجواهر الثمينة من لدن بني أمية وأيام بني العباس..
تناهى جمعها إليه..
بدأ يفرّقها بين حظاياه وأصحابه حتى أنفذها..
وهذا حال الصبيان وسفهاء الولاة..

هذا الصبي السفيه..
سيوقّع إعدام الحلاج..

«الصبي السفيه» غير قادر على الحكم..
أمه.. السيدة شغب.. اليونانية الجذور.. حكمت من وراء ستار..
أسرعت إلى حمايته وترسيخ حكمه.. تحيطه بسوارٍ من أعوانها وحلفائها..
منهم..
مؤنسٌ القشوري العسكري البارع يوناني الجذور..
نشأ في بلاط المعتضد والدِ المقتدر..
عمل مع أمير الجيش معاوناً للشرطة..
خصيٌّ.. يدخل إلى الحريم ومعهن كان يحيك المكائد وينسج المؤامرات..
لهذا.. ربما أُبعد عن القصر إلى أرض الحجاز..
سبع سنين..
عاد.. يوم استدعته شغب.. ليكون بين حرس الخليفة ورجاله..

انصرف ابن الثالثة عشرة إلى اللهو..
سيطرت الجواري على القصر وعلى شؤون الناس والسياسة وصُرف المال.. العام والخاص.. على الموائد والترف..

ابن المعتز..

دعوة الحلاج تمتد وتُثمر..

ثلة من رجال الجيش والدولة يجتمعون على خلع
المقتدر وتولية عبد الله بن المعتز الخلافة من بعده..
يشاورون ابن المعتز..
يقبلُ الأمر.. ويشترط ألاّ يُسفك دمٌ بسببه..

الانقلاب يُدبّر..
يعرفُ لرجال المال من الصيارفة اليهود وكبار المزارعين
والإقطاعيين اتجاهاتها.. يتخلّون عنها..
تولد الثورة محاصرة..

الانقلاب يُدبّر..
والخليفة يلهو..
يلعب في الطريق أمام القصر بالصولجان والكرة
مع أترابه وخدمه..
قصد إليه الحسين بن حمدان.. أحد الثائرين وقائدهم
العسكري.. يريد قتله..
سمع المقتدر الصوت والجلبة ففرّ إلى القصر مع خدمه..
أغلقَ الباب.. يرتجف..
ورجع الحسين بن حمدان واجتمع مع الأمراء والأعيان
والقضاة في دار المخرمي وبايعوا ابن المعتز خليفةً ولقب
بالمرتضى بالله..

كتب ابن المعتز إلى المقتدر.. أمره بالتحوّلِ من دار الخلافة فأجاب المقتدر بالسمع والطاعة..
ركب إليه الحسن بن حمدان.. في بضع رجال يتسلم القصر..
فلما وصل.. قاتله الحرس والخدم حتى هزموه وقتلوا رجاله.. ونجا ابن حمدان بنفسه..

سمع مؤنس بخبر الثورة..
جمع رجاله في قوارب بحرية..
أبحر في دجلة.. حيث ابن المعتز ورجاله..
هاجمهم.. غفلةً.. فشتّت شملهم فانفضّوا عن ابن المعتز.. فِراراً وقتلاً.. واستجار ابن المعتز بدار ابن الجصاص فأجاره..

عمّ النهب والسلب في البلد واختلط الناس..
حتى استتب الأمْرُ للمقتدر فولّى الوزارة لابن الفرات..

ابن الفرات مسعورٌ يهزّ ذيله.. طاعة..
يبُثُّ العيون في كل مكان..
يرصدون بقايا الثوّار .. ينهشهم..

وصل الخبر..
ابن المعتز لجأ إلى دار ابن الجصّاص..

أرسل ابن الفرات فرقة من العسكر..
هاجموا الدار..
اعتقلوا المُجير والمستجير..
مكبّلين.. ساقوهما إلى قصر الخليفة..
تأمّل الخليفة ابن المعتز..
القيود في يديه.. في قدميه..
أشاح عنه وكلّم ابن الجصاص..
لماذا آويته..
جاء مستجيراً يا مولاي..
فكّر الخليفة..
أقْتُلُهُ أم أكسبُهُ..
واختار الثانية..
تبسّم..
مكرمة تطلق ثناء الناس..
أحسنت..
أشار إلى الحرس..
فكّوا قيوده.. أكرموه وردّوه إلى داره..

تحدّثت العامة عن كرم المقتدر وعفوه..

لا يروي أحد ما حدث..
بقي ابن المعتز يواجه مصيره..
أيامٌ.. وسُلّمت جثته إلى أهله.. هامدة..

دفنوه بلا عزاء.. خوفاً ورهبة..

أما الحسين بن حمدان.. قائد الثورة العسكري .. أدرك
أن قوّته تفكّكت فاختفى..
يقال.. إنه ظهر مرة في بغداد ومرة في البيضاء..
وطواه التاريخ بعدها.. فلا أثر..

والحلاّج..
سأل ابن الفرات..
أجاب صاحب الشرطة.. مطمئناً..
تركناه.. طليقاً..
حلقة.. توصلنا إلى سلسلة طويلة..
نغض الطرف عنه حتى يطمئنّ ويطمئن رجاله..
فإذا اطمأنّوا.. تواصلوا يدبّرون أمراً..
عندها.. نلقي الشبكة على الصيد الثمين..
تبسّم ابن الفرات..
داهيةٌ.. أنت دائماً داهية..

اللجوء..

الحلاج في بغداد.. وحيداً..
رجاله من أهل الحكم.. ممن كُشف أمرهم.. تفرّقوا..
ابن داود.. يكيد كيداً..
الفرصة سانحة لدسائسه التي لا تهدأ..
الخلافة متحفّزة..
ابن الفرات ينتظر..

روح الثورة..
صوت العدل في ليل الظلم..
صوت الحلاج.. مدوّياً.. ما زال..

تندلع ثورة جديدة..
رجلها سليمان بن مخلد.. أحد أتباع الحلاج..
لكن ابن الفرات كان يقظاً..
أخمد الثورة واعتقل ابن مخلد..

الدائرة تضيق..
السلاسل تقترب..
أدرك الحلاّج أن حريّته ستسكن الجدران..
رأيه.. فكره.. دعوته..
قرر الرحيل.. إلى سوس.. من أعمال الأهواز.. يسعى إلى الوصول إلى البيضاء.. بعيداً عن عيون ابن الفرات وعسكر الخليفة..

اختفى..
فقدنا الطُعم والصيد..
أجاب صاحب الشرطة..
لن تنام عيوننا حتى تراه..
ننتشر في الأرض نبحث عنه..
سعاة البريد يجوبون مغارب الشمس ومشارقها يقتفون
أثره ويشتمّون رائحته..
نرصد المال لمن يدلّ عليه..
نحن في زمن يبيع الناس فيه ضمائرهم..
وليس كالمال فتنة للناس..
أعدك يا سيدي سنأتي به مكبّلاً على حمار أو جمل..

انطلق الدساسون والبصّاصون..
في أرجاء الأرض.. طاف سعاة البريد..
سنوات.. لا خبر..

في هذه السنة.. سبع وتسعين ومائتين للهجرة..

توفي الفقيه الظاهري محمد بن داود.. أوّل من طالب
بمحاكمة الحلاّج بتهمة.. حب الله..
مات عاشقاً..
عشق محمد بن جامع وقضى في هواه..
قالوا..

كان يهوى محمد بن جامع.. ولأجله صنّف كتاب
«الزهرة».. كان ابن جامع من أكثر الناس مالاً..
ولا يُعرف معشوق كان ينفق الأموال على عاشق إلاّ
ابن جامع مع ابن داود..
قال القاضي ابن سريج في عزائه..
والله ما أُثني إلاّ على التراب الذي أكل لسان محمد بن
داود..

والي سوس.. عرف بأمر الحلاّج..
كان محباً له عارفاً فضله..
غضّ عنه الطرف.. حُبّاً ووفاءً..
استمر.. الحلاّج في دعوته..
شعارُه..
تغيّرت الأرض والدعوة واحدة..
الفقرُ ليس قدراً علينا..
العدل قدرُنا.. وطلبه أمرنا..

يوماً..
وصل رجل من البصرة إلى بغداد
مقنّعاً.. يغطي وجهه و.. ضميره..
تلميذ من تلامذة الحلاّج.. باع آخرته بدنياه..
قصد مجلس ابن الفرات..
أريد أن أقابل سيدي..

- لماذا..
- أُخبِرُه بأمر..
- ما هو..
- أقسمت أن لا أكلّم أحداً قبله..

قال ابن الفرات..
أدخلوه..
دخل الرجل..
- هات ما عندك..
- خبرٌ لرجل كريم..
- وما هو..
- مكمن الحلاّج..

وقف ابن الفرات بانتباه..
- أين..
أجاب الرجل..
في سوس.. يا سيدي..
أمسك ابن الفرات كيساً من المال بيده..
رماه على الرجل..

دخلت سنة تسع وتسعين ومائتين للهجرة..
وفيها..
غضب الخليفة المقتدر على الوزير علي بن محمد بن الفرات فعزله..
أمر بنهب داره فنُهبت أقبح نهبٍ وهُتكت حُرَمُهُ..
استوزر أبا علي محمد بن عبد الله بن يحيى بن خاقان ثم خلعه واستوزر علي بن عيسى..

في ليل بلا قمر..
طرق رجال الشرطة الباب..
لم ينتظروا..
دفعوه.. دخلوا..

الحلاّج جالس يتعبّد..
تأتي معنا..
وقف.. نظر إليهم..
خرج يتبعه غلامه..

قُرمطي.. فاعرفوه..

في السادس من ربيع الأول سنة واحد وثلاثمائة للهجرة..
وصل الركب إلى بغداد..
الحلاج.. مكبّلٌ.. مرفوعٌ على جمل.. يتبعه غلامه..
الناس في الطرقات يشاهدون ويسمعون منادياً..
يصرخ..
هذا أحد دعاة القرامطة.. فاعرفوه..

هذا رجل من القرامطة.. فاعرفوه..
نداء ابتكره حامد بن العباس عامل الضرائب في واسط..
حاقدٌ على الحلاّج..
على العدالة التي ينادي بها..
توزيع الثروات..
رفعِ الضرائب عن كاهل الفقراء..

هذا رجل من القرامطة.. فاعرفوه..
نداء..
أعجب مؤنس الفحل.. صاحب الشرطة..
نداءٌ يُحرجُ الوزير علي بن عيسى..
مؤنس.. يعلم أن قرار القبض على الحلاّج اتخذه الوزير الحاقد محمد بن الفرات.. قرارٌ لا يتخذه الوزير الجديد..

كراهيةٌ تشتعل في قلب صاحب الشرطة..
أتعبه البحث عن الحلاج.. ثلاث سنين..
الخيانةُ وحدها أوصلته إليه..
العقاب يشفي غليله..
يطفئ ناره..

علي بن عيسى.. حائرٌ.. يُفكر..
الحلاج.. صابر.. ينتظر..

درس ابن عيسى أصل القضية..
دعوى رفعها محمد بن داود.. الفقيه الظاهري..
بها حكم ابن سريج.. القاضي الشافعي..
فيها..
«الحلاج.. رجل صالح.. مسلم عالم.. درس الحديث
والفقه.. التفسير وعلم الكلام حج البيت ثلاثاً..
... ما يقوله من شعر إنما هو من أحوال المتصوفة
وهو ليس من اختصاص المحكمة»
اطمأن ابن عيسى لما قرأ..
شكّل محكمة من مجموعة قضاة يؤمنون بما أفتى به ابن
سُريج..
اثنان منهم من الشافعية..
يرَوْن فيما قاله الحلاّج.. دموع مُحب..
لوعة عاشق مُفارق..

واعتمد القضاة فتوى ابن سريج التي تبرئ الحلاّج
في المحكمة..

وقف الحلاّج أمام القضاة..
سألوه..
هل أنت قرمطي..
قال..
لا..
سألوه في الفقه..
رفض أن يتكلّم..
سألوه في الحديث.
رفض أن يتكلّم..
سألوه في التفسير..
رفض أن يتكلّم..

علي بن عيسى..
قال للخليفة..
«لم يقرّ الحلاج بما رُمِيَ به..»
فكّر إبن عيسى أن يمسك العصا منَ الوسط..
قرّر تعزيره بعقوبةِ التشهير والصلب.. يومين على ضفة
دجلة الشرقية.. ويومين على ضفته الغربية..
ورُفع الحلاّج على صليبه..

يُروى في أخبار الحلاّج.. عن أحمد بن فاتك..
«كنّا بنهاوند وكان يوم النيروز..
سمعنا صوت البوق..
سأل الحلاّج.. أي شيء هذا..
قلنا.. يوم النيروز..
تأو وقال.. متى نُنورز..
سألنا.. متى تعني..
قال.. يوم أُصلب..

يوم صُلب مررتُ به..
نظر إلى من رأس الجذع.. وقال..
يا أحمد نورِزْنا..
فقلت.. أيها الشيخ هل أُتْحِفْت..
قال.. نعم.. أُتْحِفْت بالكشفِ واليقين..
وأنا مما أُتحفتَ به خجل.. غير أني تعجلت الفرح..

الفرح..
يوم الصلب الأكبر..
يوم يتطاير الجسد رماداً في الهواء..

السجين..

فكّوا قيوده..
عن صليبه أنزلوه..
جلس منهكاً..
يحاول أن يقف.. لا يستطيع..
يأمرُ جسده.. لا يطيعه..
تيبّست أطرافه..
لحظات..
جمع كبريائه وإرادته ووقف..

بين القيادة والسياسة.. خطوة..
السياسي.. يمسك العصا من الوسط..
القائد.. يمسكها من أحد طرفيها.. وإن خسر..

الوزير..
علي بن عيسى..
امسك العصا من الوسط..
في قلبه ألم.. يعتصر..
يمشي في قصره.. قلقاً..
هذا الرجل..
قبض عليه إبن الفرات..
صلبتُه بلا ذنب.. أُرضي خصومه..
والآن..
لو أطلقت سراحه.. قتلوه..

ليته كان في الأهواز.. بعيداً.. طليقاً.
ولكن..
سبق السيفُ العذل..
ليس لهذا الرجل مكان آمن.. يعيش فيه..

أشار ابن عيسى إلى أحد رجاله..
خذوا الحلاج وضعوه في سجن قصري..
خرج الرجل.. يصدعِ بالأمر..
ردد ابن عيسى مقنعاً نفسه..
بهذا أرضي خصومه وأحمي.. حياته..

ما حلمت بخلوة مثل هذه..

تأمّل حوله..
وبدأت رحلة..
خطواتها ثمانية..
وخطوتها سنة..

قال أحدهم..
كنت أزور أخي في سجن بغداد..
فسمعت في هدئٍ منَ الليل مناجاة طيبة
فأصغيت..
وإذا بقائلٍ يقول..

«حبيبي..
سترتتي حيث شئتَ.. فوعِزّتُك..
لو عذبوني بأنواع البلاء ما رأيته إلا من أحسن النِعم..
إلهي..
أخشاك لأني مذنب..
وأرجوك لأني مؤمن..
وأعتمد على فضلك لأني معتذر..
واثِقٌ بكرمك لأني مستغفر..
وأَنْبَسطُ إلى مناجاتك لأني حسنُ الظنِّ بك..»

سألت من هذا..
قالوا..
الحلاّج.. الحسين بن منصور..

السجّان يغلق جدراناً أربعة..
بابُ السماء لا يغلق..
يرفع يديه.. يدعو..
الحبُ سلطان ينفذ من أقطار السموات والأرض..

يرتقي في معارج الروح..
يسمو..
يرتشف..
قال له صاحبه وهو يحاوره..
ألا تحقن دمك بالكتمان..
قال..
البوحُ بالحبّ آيةُ الصادقين..

الحبُ ما دام مكتوماً على خطر
وغاية الأمن أن تدنُو من الحذر..
وأطيب الحب ما نمّ الحديث به
كالنار لا تأتِ نفعاً وهي في الحجر

باحَ أخي البسطامي.. أبو يزيد.. بما باح..
صرّح بما صرّح..
غيره كثيرون.. باحوا..
وهم في أمنهم.. آمنون..
ذهبوا إلى الغيب وما رجعوا..

وأنا..
ما حرقتني نار القرب..
ذهبت ورجعت..
رسول الله.. الحبيب..
كان يبيت عند ربّه..
في الصباح..
يخرج.. يُعلم الناس..
يُصلح الدنيا..
يغرس الغرس..
لما رجعت..
رأيت بنور الحق..
ظُلماً..
فصدعتُ بما أُمرت..

بنو العباس..
ما على الله من حبي.. غيورون..
شغلوا أنفسهم بالجواري..
جمع الضرائب..
أكل أموال المسلمين..
وما غضبوا إلا يوم رجعت إلى الأرض..
أطلب الإصلاح..
ولو بقيت في عالم الغيب..
أقول الشعر..

لما قرأوا..
ولا سمعوا..
ولا غضبوا..

يرتّل في تهجّده..
«اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى..»
فيقرر أن يكتب إلى الخليفة.. المقتدر..
«فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى..»
فكتب له رسالة والدٍ إلى ولدِه..
يدعوه إلى العدل..
ومَنْعِ اغتصاب أموال الناس..

الرسالة..
قرَأَتْها السيدة شغب.. والدة المقتدِر..
رأت فيها نجاة ولدها من ظلمة الظُلم وناره..
أرسلت إلى الحلاج تدعوه إلى قصر الخليفة..

شغوفاً بالمعرفة..
عاش عُمْره..
أيامه ولياليه..
عرف اللغة والدين والفلسفة..
الطب والكيمياء..

وصل إلى القصر..
السيدة.. جالسة.. لا تكاد تقف..
الحُمّى..
سلبت قوّتَها..
أعطتها الوَهنَ..
دخل..
رغماً عنها.. وقفت..
هدوءٌ في مشيته..
هيبةٌ في طلعته..
كلّمتهُ بإجلال..
كلّمها بمودة..
تأمّلها..
طلب ماءً بارداً..
رشّ وجهها..
على نوافذ الغرفة زهورٌ..
قطف أوراقها..
خلطها..

عجنها بيده..
أضافها إلى الماء..

زمن..

تناول الماء..
صفا وراق..
سقاها..
جلس يحدّثُها..
هدأت.. قَليلاً.. قليلاً..
بدأت تحدّثه..
قالت..
ليتك تصنع مثل هذا الشراب لولدي المقتدر.. فهو..
مثلي.. منهك مريض..

شرب الخليفة..

أمِنَ الحلاّج في سجنه..

تبِعَتْه السيدة شغب.. حاكمةُ القصر الحقيقية..
تبعه رجالٌ نافذون..
نصر القشوري.. أكثَرهم وفاءً..
كثُرَ أنصار الحلاّج وأَحْجَمَ عنه أعداؤه..

يكتب أفكاره..
يقرأها على تلاميذه وأتباعه..
شعراً.. ومحبة..
ينشرونها بين الناس..

عن حبيبه محمد.. السِراج.. كتب..
«سراجٌ من نور الغيب بدا وعاد، وجاوز السراج وساد..
قمر تجلّى بين الأقمار.. كوكب برجه في فلك الأسرار..
سمّاه الحقّ «أميّاً» لجمْع همّته، «وحَرَمِيّاً» لعِظَم نعمتِه،
و«مكّيّاً» لتمكينِه عند قُربَته..

شَرحَ صدرَه، ورفع قدْره، وأوجب أمرَهُ، فأظهر بدرَه..
طلع بدرُه من عمامةِ اليمامةِ، وأشرقَت شمسُه من ناحيةِ
تهامة، وأضاء سِراجه من معدنِ الكرامة..
ما أخبر إلا عن بصيرته، ولا أمرَ بسنّته إلا عن حُسن
سيرته، حضر فأحضرَ، وأبصرَ فأخبرَ، وأنذر فحذّر..

ما أبصره أحد على التحقيق سوى الصديق، لأنه وافقه،
ثم رافقه، لئلا يبقى بينهما فريق..

ما عرف عارفٌ إلا جهل وصفه..
«الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ
فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ»

أنوار النبوّة من نوره برزت، وأنوارهم من نوره ظهرتْ،
وليس في الأنوار نورٌ أنور ولا أطهر وأقدم من القدم،
سوى نور صاحب الكرم..»

مرت سنوات..
ودخلت سنة أربع وثلاثمائة للهجرة..
فيها..
عزل المقتدر الوزير علي بن عيسى وولّى الوزارة
علي بن الفرات..
خصم الحلاج وعدوّه.. الذي أصدر أمر القبض عليه
وطارده سنين..

حامد.. الوزير..

لا يدوم الأمر لرجلٍ فاسد..
بعد سنة وخمسة أشهر وتسعة عشر يوماً..
في سنة ست وثلاثمائة للهجرة..
أجمع رأي المقتدر مع من يشاوره على تقليد الوزارة لحامد بن العباس..
دخل حامد على الخليفة المقتدر يوم الثلاثاء لثلاث ليال خلون من جمادي الأولى.. وخلع عليه الخليفة بعد أن استقبله الناس في بغداد.. ورأى الخليفة ومن حوله ضعف حامد وكبره، فعلموا أنه لا بد له من معين..
فأخرج علي بن عيسى من حبسه وأرسل إلى الوزير حامد يعلّمه أنه لم يصرف علياً بن عيسى عن الوزارة لخيانة ولا لشيء أنكره، لكنه طلب الاستعفاء فأُعفيى..
أُرسله إليك لتولّيه الدواوين وتستعين به فإن ذلك أجمعُ لأمورك..

بعد أيام .. صادر الوزيران ألف ألف دينار من أموال ابن الفرات.. اختلسها أيام وزارته..

في شبابه.. كان حامد ينوء بحملين..
قربة ماء يطوف بها بين الأزقة.. يبيع ماءها.. وشمس تلسعه ساعات النهار..
يدور والدرهم أمامه.. يدور..

مع الغروب..
يسقط الاثنان معاً..
ينام حامد.. يعض في أحلامه على الدرهم حتى لا يفقده..
ما أبغض الفقر..
لو فارقته..
أموت ولا أرجع إليه..
أجمل الصور.. درهم فوق درهم فوق درهم..
أجمل الأصوات.. رنين دراهم تعُدّها..
أكره القِربة والأزِقّة والساحات..
الماء والشمس والناس..
أكره يوماً رائحته العرق وغداً لونه اليأس..

رمى حامد القِربة عن كتفه.. يبحث عن عمل جديد..
حصل على ما تمنّى..
أصبح جابياً للضرائب يشتمّ رائحة المال عن قُرب..
عميلاً للوزير سعيد بن مخلد..

ومِثلُ حامد يملك أسباب النجاح في الزمن الفاسد..
من جور الحكّام خرج الناس إلى عدل الإسلام..
بدأت الخلافة راشدة..
يرتعش الخليفة في المدينة..
يخاف أن تعثر دابة في العراق فيحاسبه الله لِم لمْ يمهّد

لها الطريق..
تقول الخلافة الراشدة..
ولّيتُ عليكم ولست بخيركم..
ما جاع فقير إلا بما مُتّع به غني..
ما من نعمةٍ موفورة إلاّ وإلى جانبها حق مضيّع..
الخليفة يقول..
أأقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشارك الناس مكاره الدهر..!

الخلافة مضت راشدة عادلة.. هادية مهدية..
وأقبل الملك.. العضوض..
الحاكم يعُضُّ على الحُكم بأسنانه..
وتبدلت الأيام والليالي..

على أرض العراق..
وقف صحابي..
أمام كسرى..
يقول..
أتينا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله..
وعلى نفس الأرض.. بعد سنين..
يقول أبو جعفر المنصور.. إنما أنا سلطان الله في أرضه..
سلطان الله..

يملك البلاد والعباد..
يورّث الأمة لأولاده متاعاً من المتاع.. كالمال والنِعال..
كسرى رجع بملابس عربية.. وقيصر..
معه القصور والضرائب..
السلطة والسلطان..
رجع كسرى يُخرج الناس من عدل الإسلام إلى جور الحُكام..

زكاة المؤمنين..
للفقراء والمساكين والغارمين وابن السبيل.. أمرُ الله..
وضرائب الملك العضوض.. أمر السلطان..
للجابي ولمن يُجبى له..

ومما ابتدع الأموي هشام بن عبد الملك.. وعلى نهجه سار من بعده.. نظام «الالتزام» أو «الضمان»..
كما يضمّنُ المزارع الزرع والأرض.. يضمّن الكفيل البلاد والعباد..
يقوم الكفيلُ بتحصيل الضرائب وجمعها لنفسه مقابل قدر من المال معلوم يدفعه.. يحصل السلطان على نصيبه دون عناء.. ويربح الكفيل الفرقَ بين ما يجمعُ ويدفع..
فرقٌ وسّع الهوة بين من يملك ومن لا يملك.. أيقظ ثورات الجياع ورسّخ سلطة جباة الضرائب .. ومنهم حامد بن العباس وزير المقتدر..

تولّى حامد.. أول ما تولّى.. أمر منطقة مزقتها معارك الزنج وعسكر الخليفة.. دمّرت مزارعها وأتلفت نواعير السقاية فيها..
أرض جدباء..
فكّر ثم دبّر..
أُقنعُ أهل الحكم فنُصلِحُ النواعير..
ترتوي الأرض..
تخضرّ المزارع وتثمر الأشجار دراهما وثمارا..
يومها.. أجمع الضرائب.. أجمع الكثير..
أبني ما دمّرته الحرب..
أُعمّرُ مساجد الفلاحين فيفرحون.. وأُفرغُ جيوبهم فلا يشعرون..
كالصيّاد.. أرمي الحَبّ للطير لصيدها..

بدأ حامد يُجوّع مَن تحته ويُطعم مَن فوقه..
نال الرضا..
اتّسعت دائرة سلطته من واسط إلى دمشق وفارس إلى البصرة والأهواز..
جلس على كرسي الوزارة.. ولم يشبع..
في رحلته من السقاية إلى الوزارة كان دائماً يسمع صوتاً يزعجه..
صوت رجل مؤمن يدعو إلى العدل ورفع الظلم عن الناس..

صوت الحلاّج.. الحسين بن منصور..
لعلّي أُسكت هذا الصوت.. قريباً..
ردّدَ حامد..

متناقضان يحكمان..
علي بن عيسى..
حلاّجي الهوى..
يؤمن بإلغاء الاحتكار وتخفيف العبء الضريبي الذي
يثقل ظهر الناس..
و.. حامد بن العباس..
جابي الضرائب الجشع.. لا يعرف طريقاً إلى قلوب
الفقراء.. ويعرف كل الطرق لإرضاء السلطة والأغنياء..
يرى في السلطة طريقاً يضاعف به ثروته..
يكدّس مالاً على ماله..
أقنع الخليفة أن يضمّنه أراضيه الزراعية..
وعندما جنى محاصيلها منعها عن بغداد فارتفعت
الأسعار وزاد الفقر فقراً..

ثم دخلت سنة ثمان وثلاثمائة للهجرة..
وفيها..
غلت الأسعار في بغداد فاضطربت العامة وقصدوا دار حامد بن العباس..
واعتدوا في ذلك اليوم.. الجمعة.. على خطباء المساجد فمنعوا الخطبة وكسروا المنابر..
قتلوا الشرطة..
أحرقوا الجسور..
اقتحموا السجون..
تجمّع أصحاب الحرف وهاجموا أتباع حامد..
كثر القتلى بين العسكر والناس..

مع العامة..
تعاطف نصر وابن عيسى..
قالا..
الاحتكار يشعل نار الفتنة..

أحاط بحامد الخطر..
هرع إلى الخَليفة.. المذعور..
لا بد من الذهاب إلى واسط..
وافق الخليفة.. بلا فهم.. بلا تردد..
سافر حامد وعاد بالحبوب..
وزّعها على الأسواق..

فنزلت ماءً على نار..
انخفضت الأسعار.. وبدأ الناس يهدؤون..

في هذه الأيام..
إلى مشارف بغداد..
وصل أمير الجيش.. مؤنسٍ..
راجعاً من مصر.. منتصراً.. على الفاطميين..
أخمد الثورة ضد الخليفة وعاد..

مؤنس..
عمل مع أمير الجيش معاوناً له على الشرطة..
نشأ في بلاط المعتضد..
خصيّ يدخل إلى الحريم ومعهن يُحيك المكائد وينسج المؤامرات..
لهذا.. ربما.. أُبعِد عن القصر وعن بغداد في غياب طال سنين سبعة..بعدها.. توفي الخليفة المكتفي وخلفه أخوه المقتدر..

المقتدر..
طفل في الثالثة عشرة من عمره..
أسرعت أمه السيدة شغب.. اليونانية الجذور..
إلى حمايته وترسيخ حُكمه.. تُحيطه بسوارٍ من أعوانها وحلفائها..

أرجعت مؤنساً العسكري البارع إلى بغداد ليكون
بين حرس الخليفة ورجاله.. وهو اليوناني الجذور ..
حليف الحريم القديم..
كان مؤنس وفياً لسيده المقتدر..
وقف معه يوم انقلب عليه ابن المعتز وبعض قادة الجيش..
وتكريماً لإخلاصه بدأت السيدة شغب ترتب له ليكون
على الجيش أميراً ..
حارب في الثغور وفارس..
قضى على ثورة الموصل وثورة ابن أبي الساج..
رحل إلى مصر يرد عنها الفاطميين.. وعاد إلى بغداد ..
نديماً للخليفة.. يلقب بالمظفّر..
عسكري يطفئ الثورات..
على دماء الأبرياء يمشي إلى مجد عسكري..

حليف دائم للوزير حامد بن العباس..
أحدهما يقاتل والآخر يجد في حملات حليفة
مبرّراً لجباية الضرائب والمزيد من الضرائب..
حِلفٌ لا ينتهي..

اندلعت في شرق الدولة ثورة الديلم..
انضم إليها «أخ صعلوك».. الأمير الساماني .. الذي عيّنه
نصر والياً على «الري».. لكن الأمير ترك الولاية وانضمّ
إلى الثورة ضدالخلافة..

فأحرج نصراً وأفقده سلطانه وأضعف موقفه أمام الخليفة..

لمع نجم مؤنس..
سيولّيه الخليفة جبهة المشرق لعله يخمد الثورة الملتهبة ويأتيه برأس «أخ صعلوك»..

اقترب مؤنس من الخليفة.. قائداً مخلّصاً..
تبعه حامد..
جامعو الضرائب..
المحتكرون..
وهم جميعاً أعداء الحلاج.. السجين..

سكنَ الخوفُ قلب المقتدر..

أول تجاربه انقلاب ابن المعتز عليه..
أخذوا منه مُلكه.. صبياً.. ثم أعادوه إليه..
لا يعرف ما حدث ولا كيف حدث..
مذعور دائماً..

حامد..
يقرأ المقتدر.. يهمس في أذنه..
الناس لم يكونوا جياعاً.. والخبز في الأسواق..
أفكار الحلاّج أشعلت شغب الناس..
أفكاره وقود الثورة..
ولولا أنني أسرعت بإحضار الحبوب من واسط..
لأحرقوا القصر على من فيه..

ينبض الخوف في قَلب المقتدر.. يفكّر تائهاً..

جلس حامد..
رجاله.. شياطين من الإنس..
قال أحدهم.. أتسلل يا سيدي إلى سجن الحلاّج..
أقتله.. تحت الظلام..
تأمّله حامد..
غارقاً في تفكيره..
بعد صمت..
قال..
لو قُتل بعد ثورة الجياع..
سيولد بطلاً..
أغنية..
الأغاني تهزُّ عروشاً..
وقف الحلاّج متّهماً.. أول مرة.. يوم اتّهمه ابن داود بالاتحاد والحلول.. اقترب منه الموت لولا القاضي ابن سريج وفتواه..
قُبض عليه في الأهواز بنفس التهمة..
اعتمد ابن عيسى فتوى ابن سريج وأبعد السيف عن عنقه..
نبدأ من حيث توقّفت القضية.. وفي أقوال الحلاّج وشِعره ما يكفي لألف تُهمة..

الحلاّج سجين.. بين أيدينا..
نصر.. تراجع عن حمايته..

المقتدر.. يملأ قلبه الشك..
مؤنس.. أمير الجيش.. في بغداد.. إلى جانبي..
بقي ابن عيسى..

ابن عيسى..
قصد حامد الفقيهَ القاضي الجليل.. ابن مجاهد..
خليفة القاضي الشافعي.. ابن سريج..

نائب الوزير..
علي ابن عيسى..
من أتباعه ومحبّيه..

جلس حامد أمام القاضي.. متواضعاً..
رحّب به ابن مجاهد..
أكرم ضيافته..
سأله عن غايته..
تكلم حامد..
- تعلم يا سيدي.. تقديرنا وإجلالنا لك ..
- ...
- وتعلم يا سيدي.. محبّتنا وإعزازنا لمعاوننا ابن عيسى..
- ...
- وكلنا يعلم محبّة ابن غيسى وتقديره لكم..
- ابن عيسى.. رجل صالح..

- لهذا قصدتكم يا سيدي لأمر فيه خيرُ ابن عيسى في دنياه وآخرته وصلاحُ أمر المسلمين..
- وفيه خير لك..
- ولخليفتنا.. أمير المؤمنين المقتدر.. أطال الله بقاءه عملتُ وابن عيسى وما اختلفنا إلاّ في أمر واحد.. أمر الحسين بن منصور الحلاّج.. رجل خالف الشريعة والدين.. قال ما مقال.. وكلّما أردنا ردّه إلى الصواب.. حماية لأمر الله.. تدخّل ابن عيسى لحمايته..
- وما تريدني أن أفعل يا حامد..
- أن تحدّث ابن عيسى.. لعل قلبه يستنير بكلام مولانا..
- الشرعُ حدودٌ بيّنة.. ولا نأخذُ بالشبهات.. فإن كان لديكم من البيّنات دلائل واضحة.. كلّمنا ابن عيسى.. وطلبنا منه أن يلزم الحق..

جدار مغلق..

ابتسم حامد..
هذا طريق الحق يا سيدي.. لهذا.. سنعدّ البيّنات كما يأمر شرعنا الجليل..

حامد..
جاهلٌ.. ربما.. لا يكتب ولا يقرأ..
يملك المال..

ومن يملك المال يملك الآخرين.. في الزمن الفاسد..

البيّنات والدلائل!!
سأشتري من العلماء من يكتب ما أريد..
أدسّ ما كتبوا بين أوراق تلامذة الحلاج وأتباعه..
نفتش دار أحدهم..
نعثر على البيّنات.. جليّةً مكتوبة..
أصحاب الأغراض.. يفترون أحاديث على رسول الله..
يسير بها الرواة..
يكذبون ويكذبون حتى يصدّقهم الناس..

بعد سنوات ثمانية..

ثم دخلت سنة تسع وثلاثمائة للهجرة..
وفيها..
وجد رجال حامد كتاباً في تفسير القرآن الكريم.. ذكر فيه الحلاج أرباباً وآلهة عديدة..
قالوا..
وجدنا الكتاب في بيت محمد القنائي.. تلميذ الحلاج وتابعه..

وجّه حامد رجاله..
دخلوا بيت القنائي..
وجدوا رسائل وأوراق نسبوها للحلاج.. فيها من الشرك ما يصعب ذِكرُهُ..

بعث حامد بالكتاب والأوراق إلى نائبه ابن عيسى..
ومعها بعث محمد القنائي.. تلميذ الحلاّج..
هذا هو حلاّجك الذي تحميه..

قرأ ابن عيسى ما قرأ..
كفرٌ وتجسيد وإلحاد تعجز عن ذكره ألسنة العباد..
صفع القنائي ثمانين صفعة.. وسجنه..

علم المقتدر..
أمر حامد أن يتسلّم السجين..
الأوراق والكتب..
وأن..
ينظر في أمر الحلاج وأتباعه..

بعث حامد عسكره..
نقل الحلاج من سجنه إلى سجن في بيته..
فرك يديه..
الفريسةُ في القفص..
أُشكّل المحكمة وينتهي الأمر..

لا بد من استبعاد أي قاضٍ شافعي..
قد يرجع إلى فتوى ابن سُريج ويحقن دم الحلاج..

أحضر الوزير حامد قاضيان إلى مجلسه..
أبا عمر الحمادي.. المالكي..
وأبا جعفر بن البهلول.. الحنفي..
قال..
وجدنا أوراق ورسائل.. كتبها الحلاج..
تحدّث فيها عن الذات الإلهية.. الاتحاد والحلول..
زنديقٌ يهدم شرع الله..
أفتوني بالأمر..
تحدث أبو جعفر بن البهلول..
قال..
لا يجوز قبول قولٍ إلا ببينة أو إقرار من المتهم..
فإن أقرّ بأنه يعتقد هذا لأن الناس قد يرون الكفر ولا يعتقدونه..
فإن أخبر أن هذا شيء رواه وهو لا يؤمن به.. فلا شيء عليه..
وإن أخبر أنه يعتقد بما كتب.. استُتيب منه..
فإن تاب.. فلا شيء عليه وإن لم يتب وجب عليه القتل..

قاطعه أبو عمر الحمّادي..
لا.. بل يُقتل.. ففي مذهبنا.. الزنديق لا يستتاب..

خفق قلب حامد.. فرحاً..
وجد في أبي عمر الحمّادي ضالته المنشودة..

المحكمة..

على فُرُشٍ وثيرة.. عالية..
يجلسون متكئين..
صفان متقابلان..
وسط أحدهما..
القاضي أبو عمر الحمّادي.. كبير القضاة..
أمامه..
الوزير حامد بن العباس..
أصرّ أن تعقد المحكمة في داره..
لا في دار القضاء ولا في المسجد الجامع..
لا مفتوحة ولا علنية..
يجلس حامد في الوسط..
عن يمينه موظف عسكري كبير.. رئيس حرسه الخاص..
وإلى شماله موظف مالي.. كبير.. يليه كاتب الخليفة..
كاتب الجلسة..
على الطرف المقابل..
في الوسط..
أبو عمر الحمّادي..
إلى يمينه..
القاضي الحنفي أبو الحسين عمر بن الأشناني..
بدلاً من القاضي.. جعفر بن البهلول الذي عزله الوزير حامد..

وأحضر ابن الأشناني من الشام..
رجل يشتري دنياه بدينه..
المناصب والجاه بذمته..
وعليه أن يدفع ثمن منصب اليوم.. دمَ الحلاج..
استبعد الحنابلة لأنهم على صراع مكشوف ومعلن ودائم مع الدولة..

في أقصى القاعة جلس الشهود..
قضاة المالكية.. اختارهم الحمادي..
تجار محتكرين وجباة ضرائب.. اختارهم حامد الوزير.. منهم..
شريك حامد.. التاجر المحتكر للقمح في بغداد خمسة عشر عاماً.. فلفل.. لصٌ..أرسله الوزير بن الفرات ليسرق تحفاً ثَمينَة من بيت الأمير أحمد بن هلال في عُمان.. يهديها للخليفة..

ابن عبد السلام ابن الفرات..
موظف مذموم خائن للأمانة.. أبو الصائب عُتبه..

فقهاء من الظاهرية.. أتباعُ الفقيه محمد بن داود..
عاشق محمد بن جامع..

صوتُ الحديد يكسر.. الصوت..
يسكن الجمع في المحكمة..
الحديد يضربُ الأرض بخطواتٍ ثابتة..
يدخل الحلاج القاعة..
للحق هيبته..
لا صوت.. لا صدى..
ينظر إلى حامد..
يشيح عن وجهه..
إلى أبي عمري الحمادي..
يتأمله لحظة..
يلتفت ويقول..
تكلّموا..
وكأنه أصدر للمحاكمة أن تبدأ..
همهمات في القاعة..
كأن القومَ.. عن رؤوسهم الطيرُ طارت..
تماسك الحمادي..
قال..
أُكتب على تلك الأوراقِ.. أمامك.. عقيدتك وما تؤمن به..
نظر إليه الحلاج ملياً..
أمسك بالقلم..
غمسه بالحبر..
كتب وهو يردّد بصوت عالٍ ما يكتب..

بسم الله الرحمن الرحيم..
والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله الكريم وعلى آله وصحبه أجمعين..
الحمد لله الذي تفرّد بذاته وصفاته عن ذوات الخلق وصفاتهم، فلا يشبههم في وجه من الوجوه ولا يشبهونه بشيءٍ من الأشياء.. وكيف يُتَصوّرُ الشبه بين القديم والمحدث..

يخفت صوت الحلاّج شيئاً فشيئاً..
ويكتب..
ومعه..
يصمت التاريخ والمؤرخون..
القضاة والشهود..
الرواة والمحدثون..
ولا يعرف أحد ماذا كتب الحلاّج..

يروون..
أنه أعطى الأوراق إلى القاضي الحمّادي..
قرأ فيها لحظات وقال..
هذا كفر بواح..
أعطى الأوراق لمساعده..
قرأ وردّد..
زندقة..

كذلك قال القاضي الأشناني..
وقرأ الشهود..
أحدهم قال وهو يقرأ..
لا يؤمن بمثل هذا إلا ابن عطاء..
صرخ حامد..
ابن عطاء..
فليشهد وليوقع على الأوراق بشهادته..

أُرسلت الأوراق إلى فقيه علماء الحنابلة أبي العبّاس بن عطاء..

قرأها وكتب..
هذا اعتقاد صحيح.. وأنا أعتقد هذا الاعتقاد..
ومن لا يعتقد هذا فهو بلا اعتقاد..

قرأ كاتب المحكمة.. بصوتٍ عالٍ.. ما كتب ابن عطاء..
غضب حامد غضباً شديداً..
نارٌ تشتعل وتحرق..
أرسل في طلب ابن عطاء..
وفي قلبه تصميم.. أن يملأ المحكمة ذُعراً..

ابن عطاء.. الشهيد..

دخل.. تملؤه العزّة..
جلس في صدر المجلس..
أحسن حامد الإهانة..
سأله..
هذا خطّك..
قال..
نعم..
سأل حامد وهو يرتجف غضباً..
أتصوّب مثل هذا الاعتقاد..

اشتمّ ابن عطاء مؤامرة لقتل الحلاّج..
رجل بريء.. عابد متعبّد..
أجاب بثبات..
مالك يا حامد ولهذا.. عليك بما نصّبتَ له من أخذ
أموال الناس وظلمهم وقتلهم..
يشيرِ إلى الحلاّج..
مَالكَ وللكلام عن هؤلاء السادة..

صرخ حامد بعسكره..
اضربوه على فكيه..
قال أبو العبّاس بن عطاء..
اللهم هذه عقوبة دخولي على حامد..
انقضّ الحرس وضربوا فكيه..

حامد يصرخ..
انزعوا خفيه واضربوه على دماغه..
فضُرب وضُرب.. حتى سال الدم من أنفه..
صرخ حامد..
إلى الحبس..
همس رجل في أذنه..
يشوش علينا العامة ويسألون..
صرخ..
إلى منزله.. احملوه إلى منزله..
حملوه..
رفع يديه..
اللهم أقتله أخبث قتلة واقطع يديه ورجليه..
حفظت دعوة المظلوم عند ربها..
ومات ابن عطاء بعد ذلك بسبعة أيام..
وكان..
رجلاً فاضلاً متعبّداً.. يقرأ في كل يوم ختمة وكان له ختمة يتدبّرها ويتدبّر معاني الذكر فيها..
قرأها سبعة عشر سنة ومات ولم يختمها..

دسائس..

قد تطول المحاكمة..
فكّر حامد..
وكلما طالت المحاكمة.. نقترب من حافة الخطر..
للحلاج أتباعه..
لهذا..
لا بد من جرّه إلى حلبة صراع جديدة لا يتقنها..
يجرّنا إلى النور..
نجرّه إلى الظلام..
في الظلام تُحاكُ الدسائس..

طرقات..
يُفتح الباب..
يدخل أحد رجال حامد..
معه رجل وفتاة..
السمّري وابنته.. شهداء زور أمر حامد بإحضارهما..

تأمّل حامد الفتاة..
شابّة جميلة..
قال بابتسامة..
لا بد أن الحلاّج تحرّش بك.. وقد أقمت في بيته..
فهمت الفتاة الرسالة..
أومأت برأسها..
تبسّم..

نظر إلى السمري..
كنتَ من أتباع الحلاّج..
نعم يا سيدي..
وانقلبت عليه..
لا بد أنه خدعك بسحرٍ سمّاه كرامة الأولياء..

ويطويهم الظلام وهم يتهامسون..

في الصباح..
دخل حامد المحكمة..
قال..
لنبدأ بالشهود..

دخل السمّري..
سأله حامد..
هل صحبت الحلاّج..
نعم..
حدِّثنا بشيء من أمره..
كنتَ معه بفارس.. خرجنا في زمن شات..
لما صرنا في الطريق أعلمته بأني اشتهيت خياراً..
سألني متعجّباً.. في مثل هذا المكان وفي مثل هذا الوقت من الزمان..
قلت.. هو شيء خطر لي..
بعد ساعات سألني ونحن نمشي في الطريق..
أنت على تلك الشهوة..
قلت.. نعم..
سرنا إلى سفح جبلِ ثلج فأدخل يده فيه وأخرج منه خيارة خضراء..
دفعها إليّ..
سأل حامد..
وأكلتها..

هنا أخطأ السمّري.. كان من المفروض أن يجيب بلا..
لأن ما يطلقه الساحرُ وهماً لا يُلمس ولا يؤكل..
لكنّه قال بلا تفكير..
نعم..
غضب حامد.. صرخ..
كذبت يا ابن ألف زانية..
انهال عليه غلمان حامد بالضرب وحملوه.. خارجاً..

دخلت ابنة السمّري..
قالت..
حملني والدي إليه يوم كان من أتباعه.. وهبني هدايا كثيرة ووعدني بأن يزوّجني من ابنه سليمان الذي كان يومها مقيماً في نيسابور وقال.. ناصحاً..
ليس يخلو أن يقع بين المرأة وزوجها خلاف..
وقد أوصيته بِك.. فإذا جرى بينكما شيء تنكريه من جهته.. فصومي يومك واصعدي آخر النهار إلى السطح..
واجعلي فطرك على ملح جريش واستقبليني بوجهك
واذكري لي ما أنكرتيه منه..
فإني أسمع وأرى..

وكنت.. ليلةً.. نائمة على السطح ومعي ابنته.. فأحسست به وقد غشيني.. فانتبهت مذعورة منكرة لما كان منه..
فقال..

إنما جِئتُك لأوقظك للصلاة..
ولما أصبحنا نزلت إلى الدار ومعي ابنته..
فلما صرنا على الدرجة حيث يرانا ونراه.. قالت ابنته..
اسجدي له..
فقلت..
أويسجد أحدٌ لغير الله..
سمع كلامي فقال..
نعم.. إله في السموات وإله في الأرض..
ثم صمتت..

تكلّم الحلاّج..
البيّنة على من ادعى واليمين على من أنكر..
أما أنا فأُقسم أن هذا لم يحدث فهل عندك البيّنة..
تلعثمت الفتاة.. ولم تعرف ما تقول..
وتأكّد القضاة من زيف ادّعائها..

يقارع الحُجّةَ بالحُجّة..
الافتراء بالحقيقة..
يصمِدُ.. جبلاً..

طالت المحاكمة..
أياماً وأياماً..
كل يوم..
يدخل رجال حامد وعيونه..
يحملون أوراقاً..
من بيت أحد أتباعه.. يزعمون..

لا يروون..
أن أبواب المحكمة كانت مغلقةً..
لا يدخلها ولا يخرج منها إلا أتباع حامد.. الوزير..

ولا يروون..
أن الستائر كانت مُسدَلة على النوافذ..
فلا يرى القاعة أحد من خارجها..
لا يدخلها.. حتى.. نور الشمس..

لا يروون..
أن عسكر حامد وحرسه كانوا أكثر عدداً من القضاة والشهود..

يزعمون..
أن عيون حامد وجواسيسه دخلوا عليه يوماً بالكنز المكنون.. صفحات من كتاب للحلاج.. يقول فيها..
يزعمون..
«إن الإنسان إذا أراد الحج ولم يُمكنه.. أفرد في داره بيتاً لا يلحقه شيء من النجاسة ولا يدخله أحد، فإذا حضرت أيام الحج، طاف حوله طواف البيت الحرام سبع مرات، فإذا انقضى وقضى من المناسك ما يقضي بمكة مثله جمع ثلاثين يتيماً وعمل لهم أفضل ما يمكنه من الطعام وأحضرهم إلى ذلك البيت وقدم إليهم ذلك الطعام وتولى خدمتهم بنفسه، فإذا فرغوا من أكلهم وغَسلِ أيديهم، كَسا كُلَ واحدٍ منهم قميصاً ودفع إليه سبعة دراهم..
فإذا فعل ذلكً قام له مقام الحج..»

رجل حج البيت.. ثلاثاً.. واعتمر..
جاور سنيناً..
صام..
صلى..
أقام الليل..
يُنكر الحج.. شُبهة قرمطيّة..
والراوي.. حامد ورجاله..
ويروون..
أن الحلاج أقرّ بما في الكتاب وأنه نسب الكلام

للإمام الجليل الزاهد الحسن البصري.. في كتابٍ
له اسمه «الإخلاص»..

كذب الرواةُ.. الدسّاسون..
نسوا أن ليس للحسن البصري كتاب اسمه «الإخلاص»..
وكذبوا..
قالوا..
ردّ القاضي أبو عمر الحمّادي على الحلاج..
يا حلال الدم.. قد سمعنا كتاب الإخلاص للحسن
البصري.. في مكة..
وليس فيه شيء مما ذكرته..
كذب القاضي..
كيف قرأ كتابا غير موجود..

يروون..
أن حامد الوزير قال للقاضي..
اكتب ما قلته..
خاف القاضي صولة حامد..
كتب..
يا حلال الدم.. قد سمعنا كتاب «الإخلاص» للحسن
البصري في مكة وليس فيه شيء مما ذكرته..

انقضّ حامد على الورقة..
سحبها من يد القاضي..
لوّح بها في وجهه..
لقد أحللت دمه يا أبا عمر.. أحللت دمه..
نظر القاضي إلى حامد..
عيونه يتطاير الفرح منها شرراً..
ذئبٌ ولَغَ في الدم..
ارتعش.. خوفاً..
لم يُجب.. لم يتكلم..
التصقت شفتاه على الجرم البغيض..
قال حامد..
أكتبْ..
.. .. ودمه حلال وجب قتله بلا أعذار فأمير المؤمنين
أطال الله بقاءه في وسعة من دمه.. في مجلس الوزير
أبي محمد حامد بن عبّاس أدام الله توفيقه وحسبي الله
وحده..
شهد بذلك.. .. ..

وقّع القاضي..
تبعه الشهود واحداً.. واحداً..
والحلاج يصرخ..
ظهري حمىً ودمي حرام.. وما يحلُّ لكم أن تتأولوا عليّ
بما يبيحه واعتقادي الإسلام ومذهبي السُنّة وتفضيل

أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد
وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبي عبيدة بن الجرّاح..
لي كُتبٌ في السنة موجودة في الورّاقين.. فاللّهَ اللّهَ في
دمي..

يصرخ..
يوقّعون..
ينهضون عن مجلسهم..

سيقَ الحلاّج إلى سجنه..

اللعبة اكتملت..
الموت زائر يطرق الباب..
عليّ.. أن ألبّي النداء.. سعيداً بلقاء الحبيب..
الحبيب..
الحبيب المصطفى.. قال..
إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها..
وفي يدي فسيلة.. أغرسها..

طلب الحلاّج مقابلة الخليفة..

تردّد المقتدر.. بين صوتين..
صوت يحذّره الحلاّج ودعوته..
وصوت في أعماقه.. يرى في الحلاّج رجلاً صادقاً ذا مهابة..
تاه بين الصوتين..
خاف أن يطلب الحلاّج منه العفو..
فكّر..
ولم لا.. لو وهبتُه حياته سيصمت إلى الأبد..
تابعاً مُطيعاً..
قرر أن يقابله..
ألحّ حامد على حضور اللقاء..
سمح له الخليفة..
السلام عليكم..

رد المقتدر..
وعليكم السلام ورحمة الله..
تأمّل الحلاّج..
جبلٌ شامخٌ..
مرفوع الرأس.. يبدو طويلاً.. وما هو بطويل..
قال الحلاّج..
أن الأمّة أمانةٌ بين أيديكم وتعلمون.. كلّكُم مسؤول عن رعيته..
الخلافة..
نعمة.. من الله..
زكاتها القيام بحقّها..
حقُّها..
إقامة العدل ونُصح الأمة..
اجعل بطانتك من الصالحين..
وأبْعِدْ عنها الفاسدين.. المُفسدين..
يجرّونك إلى النار والأمّةَ إلى الهلاك..
بلا وعي.. قال المقتدر..
ظننت أنّك ستطلب العفو..
أجاب الحلاّج.. راسخاً..
إنّما أنت واسطة، فنفّذ أحكام الرب ومشيئته فيمن يشاءُ من عباده، بما شاء، كما شاء.. وإنّي لا أعترض عليك ولكني أقول كما قال الخليل.. إبراهيم عليه السلام..
وجّهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما

أنا من المشركين..

خرج..
وهم صامتون..

رأس الحلاج بين يدي..
رأسٌ بلا جسد..
السيف جُرِّد من غمده.. والسيّاف ينتظر..
توقف حامد.. يفكّر..
لماذا تأخر الخليفة في الرد عليّ..
كتبت له بخبر المحكمة وما جرى فيها..
أرسلت له حُكم القضاة بقتل الحلاّج..
لم يوقّع الكتاب..
لعله تردد..

دسست له ابن عيّاش.. القاضي.. قال له..
يا أمير المؤمنين.. هذا إن بقي قَلبَ الشريعة وارتدّ خلق
على يده، وأدى ذلك إلى زوال سلطانك..
فدعني أقتُله..
سمع المقتدر.. لم يصغ..
أحس القاضي خوفه وَتردده.. أكمل..
إن أصابك شيء فاقتلني..
سمع المقتدرُ ولم يصغ..
جاريته الرومية شغلتهَ عن دولته وسلطانه..

لعلها أُمّه..
تقول له..
أخاف عليك يا ولدي من دم هذا الشيخ الصالح..

يومَ كتبتُ إليه بأمر الحلاّج.. أصيب بالحمى..
تشاءم وخاف وخافت أمه..
لعله تردد..
هذا.. الصالح.. لو بقي.. لذهبنا جميعاً وذهب المقتدر..

بعد أيام ثلاثة ذهبت عنه الحُمّى.. كتبت إليه..
إن ما جرى في مجلس المحكمة شاع وانتشر، ومتى لم يتبعه قتل الحلاّج افتتن الناس به، ولم يختلف عليه اثنان..
لم يردّ عليّ..
أكتُبُ له من جديد..
«إن الفقهاء أفتوا بقتله.. وقد انتشر كفره وذاعت شعوذته، وإذا لم يأمر أميرُ المؤمنين بقتله على ما أفتى الفقهاء فسيفتتن الناس وينقلبون على الله ورسوله..»

تأخر الجواب..

اليوم..
يلبس القصر أبهى حُلله.. يتزيّن..
تمتد الموائد.. ألوانها مختلفة..
حولها..
يستقبل الخليفة اثنين من رجاله..
مؤنس القشوري ونصر القشوري..
تجمعهما الكنية والجذورُ اليونانية وتفرّقهما القِيَمُ والمبادئ..

نصر..
تقي ورع..
دعا إلى إسقاط الضرائب..
رهاناته ككل رهانات الطيّبين.. خاسرة..
يردّد صوت الحلاج..
تبسّم المقتدر ساخراً وأسرّ في نفسِه..
يريدني الحلاج أن ألبس مرقّعاً كثوبَ عمر.. أو أن آكل الخبز بإدام الخلّ.. كعلي.. مسكين هذا الحلاّج..
يريد من الخليفة أن يحمل أرغفة خبز يدور بها في طُرقات بغداد في الليل.. يوزعها على الفقراء..

مؤنس.. وفيٌّ للخليفة.. مؤيِّدٌ لحامد..
و.. سيعيد الأمن إلى شرقيِ الدولة..

موائد السياسة.. رقعة شطرنج..
جلس الخليفة..
لاعبان أمامه..

الخِيار لا يحتاج تفكيرا..
المقتدر عاشٍ بين الجواري في القصور..
ما جاع يوماً ولا تعرّى..
التفت باسماً إلى مؤنس وقال..
تطلب العفو عن ابن أبي السّاج وقد خرج علينا..
أجابٍ مؤنس..
طمعاً في كرمك يا مولاي.. إنه نادم على ما فعل..

فكّر المقتدر..
ما دام القرارُ في يدي.. فلم لا ألهو قليلاً.. وأمرح قليلاً وأستعرض قليلاً..
التفت إلى نصر..
ما ترى يا نصر..

وقبل أن يجيبٍ رفع الخليفة يده في الهواء.. فتح كفه كأنه يعطي هبةً وابتسم..
لكَ ذلك يا مؤنس..
ونعينه على جبهة الشرق.. علّه يأتي لنا برأس «أخ صعلوك» صديق نصر..

ارتعش قلب نصر..
كتم رعشته.. صامتاً..
ينتظر الأصعب.. وقد كان..
دخل الحاجب ومعه كتاب الوزير حامد..
فيه حكم القضاة بقتل الحلاج..
قرأ الخليفة..
ابتسم..
وقّع الكتاب..
والحال يقول..
من عاش حلاوة الباطل لا يمشي في مرارة الحق..

قُرع النفير كأنّه إعلان الجهاد..
تلفّت الوزير حامد..
أدرك أن شيئاً قد حدث..
لعل الخليفة وقّع الكتاب..
دقّات قلبِه تتسارع..
إلى الردهة.. نظر..
الكتاب.. يحمله حاجب القصر.. يهرول..
أصابع الوزير تسابق قلبه والزمن.. عيناه تجري بين السطور..
«إذا كان القضاة قد أفتوا بقتله وأباحوا دمه، فلتحضر محمداً بن عبد الصمد.. صاحب الشرطة، وليتقدّم إليه لتسليمه وضربه ألف سوط، فإن
تلِف تحت الضرب وإلاّ ضُرب عنقه»
صرخ الوزير..
أأتوني بمحمدٍ بن عبد الصمد..

قرأ صاحبُ الشرطة..
هادئاً.. طوى الكتاب..
تفكّر..
لعل للحلاّج أتباعاً يدبّرون أمراً ونحن غافلون..
تأمّله الوزير وأصغى..
أكْمَلَ..
تحتفظ به.. فإذا غطّت عتمةُ الليل الأبصار..

أُرسلُ لك رجالاً تُلبسهم ورجالَكَ ملابس ساسة الخيل
ومعهم الحلاّج.. يلبس كما يلبسون..
يركبون البغال وهو بينهم لا تميّزه عين..
يحرسه العسكرُ والظلام..
يصلنا مع نجوم الليل..
وفي الصباح.. يكون من أمره ما يكون..
أشار الوزير باصبعه وقال..
وإن قال أُجري لك الفرات ذهباً وفضة فلا تقبل منه ولا
ترفع الضرب عنه..

إلى مجلس الشرطة في الجانب الغربي من
بغداد..
مع نجوم الليل بعد العِشاء الآخرة..
وصل الركب..
ليلة الاثنين.. الثالث والعشرين من ذي القعدة
عام ثلاثمائة للهجرة وازدادوا تِسعا..

وينقضي العمر..

السجن..
غرفةٌ ضيّقة..
جدران صمّاء.. نافذة..
دخل خطوة..
خطوتين..
الباب يُغلق..
لصوت الصرير صدى..
وحيداً.. تركوه..
كما ظنوا..
وما كان وحيداً..

قال المُعلّم..
يا ولدي.. عنقود عنب..
كُلهُ في مكان لا يراك فيه أحد..
مضى الطفل..
يوم..
يومان..
عاد..
العنب بين يديه.. حائراً..
سألهُ المعلم..
لِم لمْ تأكله..
أجاب..
لم أجد مكاناً لا يراني فيه أحد..

الله يراني..
الله يراني..
تمتم في نفسه وردّدّ.. الله يراني..
النافذة في الجدار الأصمّ..

السماء والليل والنجوم..

النجوم..
صرخة أمل في سكون اليأس..
تتلألأ بالبُشرى..
ونِعمَ ما تبشِّرُ به..
الجَلَد والصَلَب ولقاء الحبيب..

السماء.. تلبس السواد المهيب..
الأبدية.. بلا نهاية..
ونحن.. نولد ونموت..
نرتحل من دار إلى دار..

ارتعش قلبُه شوقاً..

أغَداً أخلع ثوباً طالما أثقل روحي..
وأطير بين قناديل العرش..
مع طيور خُضر أغدو وأروح..

أضع رأسي على صدر الحبيب.. بعد فراق طال..
بيننا يا حبيبي ليلةٌ بحرها بلا شواطئ..
الشوق فيها مركبي..
ذِكرك شراعي وتسبيحي وتضرعي.. حتى الصباح..

على الأرض فَرَدَ رِداءه وجلس..
يا جليس من ذكرك..
متى نسيتك حتى أذكرك..
متى بَعُدتَ حتى أطلبك..
وأي الأرض تخلو منك..
يا من لم يوحدك حق التوحيد غيرك..
والله..
كل حُبٍ غير حُبِّكَ في قلبي حرام..

الساحة..

إلى ساحة الإعدام..
بباب خراسان..
على الضفة الغربية من دجلة..
يتوافد الناس..
وجوم..
تساؤل..
حيرة..
حراب العسكر تصطف..
خيولهم..
عرياتهم..
أسلحتهم..
سيفاً.. إلى سيف..
يتساءل الناس..
من المصلوب..
زنديق..
كافر..
تقيٌ..
ورع..
تآمر على الخليفة..
ناصر الفقراء والمستضعفين..
من هو..
الحسين بن منصور.. الحلاج..
صاحب الكرامات..

الساحر الدجال..
تعالت الأصوات..
تعالى الصخب..
العسكر..
يدورون حول الساحة..
سياجاً من قَسوة..
الناس.. يتراجعون..
خارج الحلقة.. ينتظرون..

يصل الموكب..
سجّانون..
عسكر..
رجلٌ.. مقيّد..
في قدميه ثلاثة عشر قيداً..
وسط الساحة..
يقف..
يتأمل الصليب..
يقسم قرص الشمس أرباعاً.. أربعة..
خيرٌ ما بعده خير..
الحمد لله الذي أخذني مظلوماً لا ظالِماً..
وسخّر من يحمل عني ذنوبي..
يطهّرني بدمي.. شهيداً.. بلا غُسل ولا كفن..

تبسّم وانتشى..
ضحك.. حتى دمعت عيناه..

قال له مريدُه الحلواني.. أبو الحسن..
ما هذه الحال يا سيدي..
أجاب..
«دلالُ الجمال.. الجالبُ إليه أهل الوصال..»

تأمّل الناس حوله..
الشبلي صديق العُمر.. بينهم..
اقترب الحلاج منه..
أمعك سجادتك..
ناولَه إيّاها الشبلي..
فرَدها على الأرض..
الله أكبر..
صلّى.. وقرأ..
«وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ × الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ × أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ×»

وقرأ في الركعة الثانية..
«كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ×»

ختم صلاته..
سلّم..
بدأ يدعو..
فكان مما قال..
«هؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلي تعصّباً لدينك وتقرّباً إليك فاغفر لهم.. فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لي، لما فعلوا ما فعلوا ولو سترت عني ما ستَرْتَ عنهم، لما ابتُليتُ بما ابتليت.. فلك الحمد فيما تفعل ولك الحمد فيما تريد..»
بدأ يدعو سراً.. ويناجي ربه..
تقدّم السياف.. أبو الحارث..
لطم الحلاج لطمةً..
سال دمه على لحيته..
أرجواناً على صفحةٍ من ثلج..

في طرف الساحة..
رجلٌ..
يقرأ أمر الخليفة..
«.. واضربه ألف سوط، فإن لم يمت فتقدّم بقطع يديه ورجليه، ثم اضرب رقبته وانصب رأسه واحرق جثّته..»
تقدّم السيّاف..
السيف مُشهر في يده..
سحب يد الحلاج اليمنى..
ضربها بالسيف.. قطعها..
سال منها الدم.. غزيراً..
سحب اليسرى..
ضربها..
سال منها الدم..
رفع الحلاج كلتا يديه..
مسح وجهه بالدم..
قالوا له..
لمَ تفعل ما تفعل..
قال..
لقد نزف جسمي دماً واصفرّ وجهي.. فلعلّكم تظنّون اصفراري جَزعاً.. حمرةُ خدِّ الرجال لا تكون إلاّ بدمائهم..
قال أحدهم..
حمّرت خدّك بالدم..

فلمَا لطّخت به ساعديْك..
قال..
إنّي أتوضّأ..
قالوا..
أيّ وضوء هذا..
قال.. والزمان يسمعُ ويحفظ..
ركعتان في العشق لا يصحُّ وضوؤهما إلا بالدّم..

هاجَ الناس..
اختلطت الصفوف بالصفوف..
أحسّ العسكر الفتنة..
بِأَسِنّة الحراب وزعيق السياط.. أرهبوا العباد..
وَاقتَادوا الحلاج إلى صليبه..

على الصليب..
ارتقى..
نسراً إلى النجوم.. يطير..
ينظر إلى الناس..
يرفعون أبصارهم.. يتأمّلوه..
مر الشبلي من تحته..
صديق العمر يودّع صديقه..
يستفتيه في الأمر ويسأله..
ما التصوّف..
نظر الحلاّج إلى صديقه وقال..
التصوّف..
أهون مرقاة منه ما ترى..
سأل الشبلي..
وما أعلاه..
أجاب..
هذا.. ليس لك إليه سبيل.. ولكن.. سترى غداً..
فإنّ في الغيب ما شهدْتُه وغاب عنك..

تلك نبوءة رجل يودّع الحياة..
عذّب..
جُلِد..
قطّعت أطرافه..
لكنّه لن يموت اليوم بل.. غداً..

وكان..
انتظر صاحب الشرطة إِذن الخليفة بالإجهاز على المصلوب..
الخليفة مشغول مع جاريته.. ساعة القيلولة..
حتى الغروب..

مع الغروب..
حمل الحرس الإِذْن إلى حامد..
قرأه وقال..
الوقت وقت راحة..
أُتركوه على صليبه حتى الصباح..
وبات الحلاّج على صليبه..
مع أشواقه إلى لقاء ربّه..
وصل حامد إلى ساحة الصلب..
ومعه موكبه من الدجّالين والمرتزقة..
شهود الزور الذين صدّقوا على حُكم المحكمة
وعليه بأمر حامد.. وقّعوا..
صرخ حامد وسط الساحة بأعلى صوت..
هل أنتم موافقون على قتل الحلاّج..
أجابوا بصوت واحد..
نعم.. ففي قتله صلاح المسلمين..
ودمّه في رقابنا..
صرخ..

هل أمير المؤمنين بريء من دمّه..
قالوا بصوت واحد..
نعم.. هو بريء من دمه..
صرخ..
وهل أنا بريءٌ من دمّه..
قالوا..
نعم.. أنت بريءٌ من دمه..
صرخ..
وصاحبُ الشرطة..
نعم..
هو بريءٌ من دمه..

أشار حامد بيده..
أنزل الحلاّج عن صليبه..
وقف أمام السيّاف..
فقال..
حسب الواحد إفراد الواحد له..
وثم قرأ من الكتاب الكريم..
«يَسْتَعْجِلُ بِهَا الّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنّهَا الْحَقّ أَلاَ إِنّ الّذِينَ يُمَارُونَ فِي السّاعَةِ لَفِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ»
ضرب السيّاف عنقه..
سقط رأسه..

لَفُّوا جسد الحلاّج بحصير من قصب..
صبّوا عليه النفط..
أحرقوه..

على الجانب الغربي من دجلة..
حملوه إلى رأس منارةٍ عالية..
نثروه.. رماداً..
تذروه الرياح..
تطايرت ذرّاته..
لامست صفحة الماء..
به.. اختلطت وذابت..
والنهر يجري..

يُروى..
أن من شرب من دجلة وناله شيء من ذلك الرماد ..
صار.. وليّاً.

NOVEL

خطوتين و قد وصلت..
اضرب بالدنيا وجه عشاقها
و سلم الآخرة إلى أربابها..

الأرض مسجد..
فعل الخير فيها صلاة..
المسح على رائس اليتيم صلاة..
رفع الظلم عن المظلوم صلاة..

الطبعة الرابعة

9 786144 861240